أَثَرُ السِّياقِ في اصْطِفَاءِ الأسَالِيب

دِرَاسَةٌ بَلاغِيّة

تأليف

دكتور / إبراهيم صلاح الهدهد

أستاذ البلاغة و النقد

كلية اللغة العربية ــ القاهرة

جامعة الأزهر الشريف

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٢/١١٨٠٤م

مقدمة

اللهم إني أبتهل إليك أن تأخذ بناصية هذه الأمة ، و أن تقيلها من عثرتها ، و أن ترد إليها عزها ، و أن تؤيد أهل الأرض التي باركت فيها بنصرك الذي وعدت ، و أن تطهر الأقصى المبارك من أبناء القردة والخنازير ، و أن تضرب عليهم الذلة و المسكنة كما مضى في الـــزمن الأول ، فإنـــك على ما تشاء قدير ، و صل اللهم يارب و سلم على سيدنا محمد صـــلاة تزلفنا إليه عدد ما تحب وترضى ، و ارض اللهم عن الخلفاء الراشدين و الصحابة الأخيار و التابعين لهم إلى يوم الدين، و اغفرلي و لوالدي و لشيوخي ولكل من علمني وهداني ، وبعد .

فإن هذا البحث يأتي في ظروف حالكة تمر بها الأمة من رميها بالإرهاب و التخريب ، و هذا مكر خبيث ، تدلنا حادثات التاريخ علـــى تكـــرره ، كلما كانت هذه الأمة في محنة ، تغرب فيها شمسها ، و يكسف ضوؤها ، وحين يشرق نهار هذه الأمة ، و يبدو صبحها ، يتوارى هذا الكيد الماكر إلى الظلام لينقض على هذه الأمة حال ضعفها وهوانها لينال منها ، ومـــن تاريخها و من قيمها ، ومن حضارتها ،كما ينال الآن.

بيد أن الخير كائن كامن في هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة كما جـــاء في الخبر ، وهذا الخير يفتقر إلى من يستثيره ، و يظهر طاقته،وســـتظل هـــذه الأمة مرمى للماكرين ، و غرضا للكائدين إلى يوم الدين . و إنما يجـــري التدبير البغيض لهذه الأمة ؛ لما يحمله دينها و حضارتها من قيم متفردة ، و

أخلاق سامية تصارع الطغاة ، و تنافح المستغلين عبدة الدنيا الذين هم لها حراس و عليها حراص .

هذه الحضارة التي ترمينا اليوم بالإرهاب و التخريب و الغباء، هي الـتي عبّدت على مر التاريخ طريق التخريب و التدمير و الإرهاب، و التاريخ شاهد صدق على ما أقول ، فهذه الحضارة لم تحتل أرضا للمسـلمين إلا سرقت علمها ، وحاولت مسخ هويتها ، بفرض لغة المحتـل علـى لغـة صاحب الأرض و الوطن ،كما حدث في بلاد إفريقيا ،وغيرها مـن دول العالم و أماتوا لغة كثير من الدول التي احتلوها ، وأيـن الهنـود الحمـر أصحاب أمريكا الأصليون ، هل ترى لهم ذكرا ، و هل تحس منهم ركزا ؟ أبادتهم أمريكا حارسة الحريات و حقوق الإنسان في العالم الآن ، و قد أحرق تراث المسلمين بيد الحـضارة الغربيـة في الأنـدلس ، و أجـبر المسلمون فيها على تبديل دينهم بعد ثمانمائة عام كانت الأنـدلس فيهـا منارة يشع ضوؤها على أوربا ، حين كانت ترسف تلك الحضارة في قيود الجهل و الظلام و الاستعباد ، لم تحرق حضارتنا التوراة و الإنجيل ، و لم تدمر كنيسة و لا بيعة ، و لم تحظر على ذوي الديانات الأخـرى إقامـة شعائرهم ، خذ هذا ، و طالع ما فعله أتباع لينين و ستالين فقد أحرقـوا المصاحف ، و دمروا المساجد،و أغلقوا مدارس العلم على أهل الـوطن المسلمين ، في مهد البخاري و غيره من علماء الأمة ، و قد قطعوا كـل لسان و أخرسوا كل داع إلى الدين في وطن لم يكن و طنـهم و أرض لم تكن أرضهم ، ومن السخف أن ترى الاشتراكيين يسمون أنفسهم دعـاة

العدالة الاجتماعية ، و أنصار الضعفاء، ثم تكون لهم في بلادنا معاقل ورجال يجثمون على صدر إعلامنا، ويقومون على تربية شبابنا ، وخذ ما حدث في تركيا و في غيرها، وما يحدث الآن ، أرأيت أبغض من دعاة حضارة يريدون مسخ حضارة الآخرين ، وتغيير أسمائهم التي تذكر بانتمائهم الإسلامي ، كما حدث في بلغاريا وغيرها ، عن أي حضارة أحدثك ، و أنت ترى و تسمع .

ومن عجب أن ترى و تسمع العلمانيين و الماركسيين الرفاق يتشدقون بأنهم دعاة التحرر العقلي ، و التنوير الفكري ، و يتَّحدون في دعوة تتجوهر في أمر واحد ، هو إطلاق العنان للعقل دون كبح لجماحه ليشرق نوره ، و يستوى عود إبداعه ــ كما يقولون ــ وهم في الوقت ذاته ينقضون دعواهم ، حيث يمارسون ما يمارسونه من أطروحات من ثوابت في (أيدلوجياتهم) مع أن دعواهم تقوم على نقض الثوابت، و تحريك الراكد ، و إشعال الحرائق الفكرية و الفلسفية إلى آخر تلك المقولات، وهم في المقابل يحاربون الظلام الذي أسس له المتحجرون الرجعيون ، الأوصياء على العقل باسم اللاهوت، هكذا يرمون كل من يفكر باسم الإسلام ! ! دون أن يقرؤوا لهم أو يطالعوا كتاباتهم ، وهو أدنى ما يقتضيه المنهج العلمي في النقد .

و يمكنني أن أذكرك ببعض مواقف العلمانيين و الماركسيين الذين يراد لهذه الأمة أن تقفو أثرهم حذوك النعل بالنعل و القذة بالقذة كما قال القدماء ، هل قامت حضارة الإسلام في أرض فتحتها بإلقاء تراثها في اليم

كما حدث من التتار ، وفعلت الأحبار بنهر دجلة ما فعلت ؟ هل أحرقت حضارة الإسلام أكثر من ثمانين ألف مخطوط في التراث الإنساني كما حدث في الأندلس فيما سمي بالتحرير الأسباني ؟ هل سرقت حضارة الإسلام من أي أرض فتحتها تراثهم ، وسأورد لك بعض الأرقام ، المكتبة الوطنية الفرنسية التي أنشئت عام (١٦٥٤ م) بها ستة مليون مخطوط منها سبعة آلاف مخطوط عربي ، كيف حصلوا عليها ؟ وفي مكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، و الفاتيكان ، و فيينا عشرة آلاف مخطوط عربي ، وغير ذلك كثير ، ومن عجب بعد ذلك أن نرمى نحن الأمة التي أول وحيها (اقرأ) بالتخريب و الإرهاب و التدمير ؟ ماذا نملك نحن من مخطوطاتهم ؟ ماذا دمرنا لهم من معارف ؟ صدق من قال : رمتني بدائها و انسلت .

و مما يندى له الجبين أن نلتمس العذر لهم ، و أن نقول إنهم لم يعرفوا الإسلام على حقيقته ، و أن ذوي اللحى من شباب المسلمين هم الذين شوهوا صورة الإسلام عند الغرب ، و أنه يجب علينا تحسين هذه الصورة إلى آخر ما ترى و تسمع ، و غاب عنا أن هؤلاء قد عرفوا تراثنا و ترجموه وولّدوه حين توقفت بنا عجلة الزمان و جثموا على أوطاننا ، و حكمونا بأيديهم ، أو بأيدي بني جلدتنا ، ووضعوا لنا سياسة التعليم في أوطاننا ،غاب عنا أن تفسير البيضاوي قد حقق و نشر في أوربا عام (١٨٤٦ م) وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري عام (١٨٦٥ م) على يد المستشرق براجشتراسر، و في السنة نفسها نشر

صحيح البخاري ، و سيرة ابن هشام بهولندا ، ونـــشر تـــاريخ الرســـل و الملوك للطبري ، و الطبقات لابن سعد و المغازي للواقـــدي في فتـــرة مقاربة جدا للفترة السالفة الذكر ، كما أن المترجم بالفرنسية وحده مـــن مختلف العلوم العربية و الإسلامية حتى عـــام (١٩٥٩ م) (٢٤٦٦) كتابا ، كما ترجمت معاني القرآن إلى (١٢١) لغة تقريبا ، كمـــا ألـــف المستشرقون كتبا في المعارف الإسلامية و اللغوية شتى ، منـــها : حـــول القرآن و علومه للفرنسي (كانار) نشر عـــام (١٩٥٢ م) و التطـــور التاريخي للقرآن للإنجليزي (سل) نـــشر عـــام (١٨٩٨م) و تفـــسير القرءن الكريم على جزءين للإنجليزي (آربري) و تاريخ النص القرآني للألماني (نولدكه) و اليهودية في القـــرآن للألمـــاني (بـــو مـــشتارك) و الإسرائيليات في القرآن للأمريكي (فنكل) ومكانة المحدثين في الإسلام للألماني (فو) و المعجم المفهرس لألفاظ الحـــديث الـــشريف ، نـــشره فنسنك، و كتاب عظمة محمد لــ (سميث) الأمريكي وغير ذلك كثير .

أضف إلى ما مضى أنه يوجد في معظم دول العالم كـــراس للدراســـات الشرقية في جامعاتها ، منذ قرون كالذي في جامعـــة بولونيـــا بإيطاليـــا (١٠٧٦ م) ونابولي (١٢٢٤ م) و رومـــا (١٢٤٨ م) وفلورنـــسا (١٣٢١ م) وبادوي (١٣٦١ م) كما أن في إيطاليا أيضا معهد اللغات الشرقية بجامعة روما أنشئ في (١٩٠٥م) و في فرنسا ـــ علاوة مـــا في جامعاتها ـــ معهد الآداب للغة العربية و التمدين الإسلامي ، وكذلك في إنجلترا و أمريكا و أسبانيا و ألمانيا وهولندا . نحن نخدع أنفسنا حين نزعم

أنهم لا يعرفوننا ، هم يعرفوننا ، و من أجل معرفتهم بنـــا لايريـــدون أن تقوم لنا قائمة ، حتى لا نملك الدنيا كما ملكناها من قبل ، وعـــدل و الله أسلافنا فيهم وما عذبوهم وما قهروهم وما أبادوهم و ما ذبحوهم !

هذه كلمة محزون مما يرى و يسمع من حوله من تآمر على أمتـــه ، وممـــا يعتصر منه الجبين أسى أن ترى بعضا من المفكرين في ديار الإســـلام ، و المشتغلين بالدرس الأدبي و اللغوي ، من عجب أن تراه يستحي من ذكر أعلام تراثه الذين أماطوا ستائر الظلام من قبل عن أوربـــا ، و إن ذكـــر أحدا من الأئمة فعلى سبيل التندر ، أو لجعلـــه مرمـــى هـــدف لرميـــه بالسطحية ، و الانطباعية ، و السذاجة ، و التخلف في التفكير ، و إهمال العقل إلى آخر تلك التهم التي صارت بمثابة ملصقات توضع على تراثنا، وعلى كل متكئ على تراث السلف يمتح من معينه الثر ، و يرشف مـــن بحره العذب ، تأمل هذه التهم التي أكررها لك كل حين حـــتى تتأهـــب لتقبلها ، و لن تجد سواها عند العلمانيين و الماركسيين ، و طالع كتاباتهم حتى تبصر ذلك (الجمود ، التخلف ، الرجعية ، العقل المسطح ، التفكير العاطفي ، العقل الظلامي ، سلطان التفكير اللاهوتي ، مصادرة الحريـــة ، إبعاد الآخر ، إرهاب الآخر برميه بـــالتكفير ، أو التفـــسيق ، العقليـــة المبرمجة، العقل المقيد ، الفكر الراكـــد ، الراديكاليـــة ، الأصـــولية ، التطرف الفكري ، إلى آخر ذلك) وفي المقابل هو صـــاحب (العقـــل المستنير ، وهو من المثقفين ، وهو من التنويريين ، وهو صاحب عقل يتأبي

على الأسر ، و يتسامى على القيد ، وهو محرك الماء الراكـــد ، ومـــشعل الحريق الفكري ، و الثائر الجموح ، و المتحرر الطليق إلى آخره) .

و الواجب عليك حتى تمتطي جواد التنويريين في البحث اللغوي و الأدبي أن تسمي بحوثك مثلا (قراء تحليلية سيميائية لـــشعر فـــلان) أو (التخزين النصي عند فلان) أو(دوغمائيات الإخلاص للنص الأصـــلي) أو (المثنوية و الواحدية في قصيدة فلان) أو (شـــعر فـــلان ـــ دراســـة نفسبنوية) وغير ذلك كثير ، و إلا فابق في حجرك ، و عـــش في أســـر القدماء ، ونم ، وما أطال النوم عمرا !

وهذا خداع بغيض ، ومكر خبيث ، يكمن خطره في أنه يصدر عن أعلام كبار ، قيل فيهم ـــ على ألسنة دعائهم ـــ إن ما يؤسسونه مـــن نهـــضة فكرية ، هو أفضل مما تنهض به مؤســـسة برمتـــها ، و عزفـــت لـــذلك المعازف، و دقت لتلك الدعاوى طبـــول ، و إيـــراد المـــصطلحات في الدرسين اللغوي و الأدبي بأسمائها العجمية ، و استبدال الأحرف العربيـــة بالأحرف اللاتينية ، لا يعني ـــ فيا أبصر ـــ إلا شيئا واحدا هو ترســـيخ أمر في نفوس الدارسين يقوم على تثبيت فكرة أن لغتك أعجـــز مـــن أن تضع مصطلحا مقابلا لهذا المصطلح ،فـــضلا عمـــا تعنيـــه تطبيقاتـــه ، واستخداماته ، و أنا لا أظن أن الذي يـــورد المـــصطلحات الأعجميـــة بالأحرف العربية في كتاباته لا أظن أنه عاجز عن ترجمتها ، و إلا فثقافتـــه لا تساوي فلسا، و هو بمثابة المذيع الذي يقرأ ما أمامـــه ، وهـــو لـــيس

كذلك بالقطع ، و لو كتبها بأحرفها اللاتينية لكان الأمر أقل خطرا فيما أزعم .

وتأسيسا على ما مضى بيانه اصطفيت مسلكا ـــ أزعم أنه موضـــوعي ـــ حيث عرضت مقولات الأسلاف في القضية التي أبحثها ، مـــدونا تـــاريخ وفاتهم ، متبعا في ذلك الترتيب التاريخي ، ثم أعرض لما قيـــل في القـــضية ذاتها في الدرس الحديث هنا و هناك قدر استطاعتي حـــتى يتـــبين للناظر المنصف ، و الناقد الأمـــين تلـــك الـــذخائر ، و الـــوعي الأدبي لأسلافنا.

و قد دفعني إلى هذا البحث مقولة بلاغية تناقلها علماء البلاغة تدعو إلى النظر و التمحيص ، فلا يخطئ مطالع لتراث أسلافنا البلاغيين مقولة هي : "وقد أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، و الكناية أبلغ مـــن التصريح " وقلت في نفسي : إن علماءنا كانوا أعقل من إطلاق مقولـــة تطعن القرآن الكريم ، فإنما قاموا لخدمته ، وعاشوا لإثبات إعجازه وهل يتفاوت البيان القرآني في بلاغته ؟ وما وجه هذه المقولة التي اشتهرت في كتب البلاغيين ؟ مما أوجب علي أن أضع منهجا للوصول إلى وجه الحق في هذه القضية ، فهديت إلى أن يكون منهجي تاريخيا، نقديا ، تحليليـــا ، وقد خرج البحث في مقدمة و خمسة فصول و خاتمـــة ، وثبـــت بـــأهم المصادر و المراجع و فهرس للموضوعات .

الفصل الأول : السياق ، عرضت فيه لمفهومه عند القدماء و المحدثين و جهودهم في تجلية جوانبه ، وماله من تطبيقات في تراثنا ، وتراث العلماء في أثر السياق في اصطفاء الأساليب .

الفصل الثاني : الأسلوب : عرضت فيه مفهومه قديما و حديثا ، وحديث القدماء عن البليغ و الأبلغ ، و إشكالية القول بذلك في القرآن الكريم ، و الكلام في تفضيل أسلوب على آخر ووجهه .

الفصل الثالث : أثر الماء في القرآن الكريم بين الحقيقة و المجاز ، مهدت له بإيجاز القول في إشكالية القول بالمجاز في اللغة و القرآن الكريم ثم عرضت للآيات موضع الدراسة بالتحليل القائم على فقه السياق و أثره في اصطفاء أسلوب الحقيقة ، أو المجاز تعبيرا عن أثر الماء .

الفصل الرابع : أثر الماء في السنة المطهرة بين الحقيقة و المجاز، عرضت فيه للأحاديث التي ذكر فيها أثر الماء بالحقيقة في مواطن، و بالمجاز في مواطن أخر .

الفصل الخامس : من أثر الماء في الشعر العربي بين الحقيقة و المجاز عرضت فيه بعض الشواهد التي ذكر الشعراء فيها أثر الماء ، مصطفيا ماعبر عنه بالحقيقة في مواطن ، و بالمجاز في مواطن أخر .

الخاتمة : وهي لأهم نتائج البحث .

و الله أسأل أن يتلقى عملي هذا بقبول حسن ، و أن يجعله أثرا لي يمتد نفعه بعد مماتي ، و أن يجعله ذخرا لي في قبري ، و سترا لي من

عذابه يوم أن ألقاه ، و أن يغفر لي ولوالدي ، و لكل من علمني وهداني، و صلى الله على سيدنا محمد و على آله و صحبه و أمته .

كتبه

إبراهيم صلاح الهدهد
أستاذ البلاغة و النقد المساعد
كلية اللغة العربية ـــ القاهرة
جامعة الأزهر الشريف .

الفصل الأول

السياق

السياق في اللغة :

هو مأخوذ من (س و ق) يقال : ساق الإبل سـوقا : جلبـها و طردها ، و يقال : سقته فانساق ، و السقة ما يـساق مـن الـدواب و سقت المهر إلى المرأة ، و ذلك أن مهورهم كانت الإبـل ([١]) يقـال : انساقت الإبل ، و تساوقت : إذا تتابعت ، و في حديث أم معبد " فجاء زوجها يسوق أعنزا عجافا ما تساوق " ([٢]) أى : مـا تتـابع ، و ذكـر الزمخشري في الأساس أن " من المجاز : تساوقت الإبـل ، أى : تتابعـت و هو يسوق الحديث أحسن سياق ، و إليك يساق الحـديث ، و هـذا الكلام سياقه كذا "([٣])

و قد جاء لفظ السياق في حديث عمر ــ رضى الله عنه ــ حين قيل له : أربع خصال عاتبتك عليها رعيتك . . . إلى أن قال : و شـكوا منك عنف السياق ، و نهز الرعية ، و كان مما أجاب به ــ رضى الله عنه ــ لولا ذلك لأعذرتك بعض ما أسوق ([٤])، و ذكر ابن الأثير أن السياق

([١]) المفردات في غريب القرآن (س و ق) ٢٤٩ .

([٢]) لسان العرب و القاموس المحيط مادة (س و ق)

([٣]) أساس البلاغة للزمخشري مادة (س و ق)

([٤]) منال الطلب ٣١١ : ٣١٧ عن دلالة السياق بين التراث و علم اللغة الحديث ٢٠ د / عبد الفتاح البركاوي ط ١٩٩٣

: السوق و المساوقة : المتابعة ، ([1]) و في الوسيط أن : السياق المهـــر ، وسياق الكلام : تتابعه ، و أسلوبه الذي يجري عليه([2])

و الواضح أن المادة اللغوية تدور على الحدو و الطرد إلى جهـــة واحدة فلا يبعد أن يكون المراد بالسياق في اللغة سوق الكلام وحدوه إلى مقصد واحد وربما يرشح لذلك ماجاء عليه قول ربنا " و الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت . . . " (فاطر / ٩) وقوله : ـــ سبحانه ـــ " و نسوق المجرمين إلى جهنم وردا " (مريم / ٨٦) وقولـــه : " أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج بـــه زرعـــا . . . " (السجدة / ٢٧) و قوله : " وسيق الذين كفروا إلى جهـــنم زمـــرا " (الزمر / ٧١) وقوله : " وسيق الذين اتقوا ربهـــم إلى الجنـــة زمـــرا " (الزمر / ٧٣) نلحظ في هذه الآيات أن المسوق جنس واحـــد ، و أن الجهة المسوق إليها كذلك واحدة ، فلو نقلنا هـــذا إلى حقـــل الكـــلام لأوجب ذلك علينا أن يكون الكلام من جنس واحد ، و أن يكون على نسق واحد ، مادامت الجهة و المقصد الذي يهدف إليه الكلام واحـــدا ، و عليه فلا بعد بين المعنى اللغوي و المعنى الذي نريد التأكيد عليه .

([1]) النهاية في غريب الحديث و الأثر (س و ق)

([2]) المعجم الوسيط (س و ق)

١٥

السياق في تراث القدماء

الشافعي : (ت : ٢٠٤ هـ) عقد الشافعي ـ رحمه الله بابا في الرسالة سماه " باب : الصنف الذي يبين سياقه معناه " ([١])و مامن ريب في أن الاستنباط الفقهي يقتضي استنطاق النصوص مع الوعي التام بسياقها الحالي و المقالي ، ويستكشف ذلك من يطالع الأم للإمام الشافعي ، و فقهه النصوص .

أبو عبيد القاسم بن سلام (ت :٢٢٤هـ) ورد السياق عنده بمعنى : المقام الذي يصاحب الكلام ، وقد ورد ذلك في قوله ، وهو يشرح الحديث " إذا لم تستح فاصنع ما شئت " عندما قال : " وهذا الحديث ليس يجيئ سياقه و لا لفظه على هذا التفسير " ([٢]) و قوله أيضا : " وقد يوحش اللفظ و كله ود ، و يكره الشيئ و ما من فعله بد ، هذه العرب تقول : لا أبا لك للشيئ إذا أهم ، و قاتله الله ، و لا يريدون به الذم ، وويل للأمر إذا تم ، و للألباب في هذا الباب أن تنظر إلى القول وقائله ، فإن كان وليا فهو الولاء و إن خشن ، و إن كان عدوا فهو

([١]) الرسالة للإمام الشافعي ٦٢ .

([٢]) عن دلالة السياق ٢٦ ، ٢٧ ، و النص في غريب الحديث لأبي عبيد ٣ / ٣١ ط الهند .

البلاء و إن حسن " ([1]) أي : أن فقه السياق الخارجي (سياق الحال) أساس لفقه النص على الوجه الصحيح .

الجاحظ : (ت :٢٥٥ هـ) : جاء السياق عنده بمعنى المقام ، والموقف ،و ذلك في قوله : " قال إسحاق بن حسان : لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط ، سئل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، و منها ما يكون في الاستماع . . . إلى أن قال : فقيل له : فإن مل السامع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف ؟ قال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، و قمت بسياسة الذي يجب من سياسة ذلك المقام ، و أرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد و العدو ، فإنه لا يرضيهما شئ " ([2])

ابن قتيبة (ت :٢٧٦هـ) : ورد مصطلحا الحال و المقام عند ابن قتيبة مرادفين للسياق ، و ذلك في قوله : " فالخطيب من العرب إذا ارتجل كلاما في نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح أو ما أشبه ذلك لم يأت به من واد واحد ، بل يفتن فيختصر تارة إرادة التخفيف ، و يطيل

([1]) عن المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للقرطبي ١ / ١١٢ ط دار ابن كثير دمشق ١٤١٧ هـ و إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للأبي ٢ / ٧٥ ، ٨٦ ، و مكمل إكمال إكمال المعلم لسنوسي ٢ / ٨٦ ط الرياض دون تاريخ.

([2]) البيان و التبيين ١ / ١١٦ عن دلالة السياق ٢٨ .

تارة إرادة الإفهام ، ثم يقول : وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل وكثرة الحشد و جلالة المقام " ([1])

ابن جني (ت : ٣٩٢هـ) ورد السياق عند ابن جني بمعنى : " تتابع الكلمات في الجملة ، أو الجمل في النصوص ، و قد ورد ذلك في استعمال ابن جني للفظ عندما قال : و ليس يجوز أن يكون ذلك { أي تكلف ما تكلفته العرب من الاستمرار على وتيرة واحدة ، وتقريبها في كلامها منهجا واحدا تراعيه ، و تلاحظه } كله في كل لغة لهم ، و عند كل قوم منهم اتفاقا وقع حتى لم يختلف فيه اثنان ، و لا تنازعه فريقان إلا وهم له مريدون ، و بسياقه على أوضاعهم فيه معنيون " ([2])

وورد أيضا مرادا به السياق الخاص من ذلك ما أورده عقب حديثه عن مجموعة من أغراض العرب و مقاصدهم من نحو التقبل و الإنكار و الأنس . . . إذ قال : " وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالمقصود ، بل الحالفة على ما في النفوس " ([3]) وواضح أنه يريد بذلك ما يحيط بظروف الكلام من أحوال خارجية .

وقد أكد ابن جني على السياق المقالي ، وكيف يعكس سياق الحال ، حين أورد حكاية قول الأعرابية في قول الشاعر :

([1]) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ١٣ عن دلالة السياق ٢٨ .

([2]) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث د / عبد الفتاح البركاوي ٢٦ ، وقد أرشدني الكتاب إلى نصوص ابن جني في هذا الباب ، النص في الخصائص ١ / ٢٢٨ تحقيق محمد على النجار ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ م .

([3]) الخصائص ١ / ٢٤٦ .

تقول و صكت وجهها بيمينها * أ بعلي هذا بالرحى المتقاعس
إن الشاعر لو قال : أ بعلي هذا بالرحى المتقاعس . . . من غير أن يذكر صك الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة ، لكنه لما حكى الحال فقال : وصكت وجهها بيمينها علم بذلك قوة إنكارها ، و تعاظم الصورة لها ، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ، و لو شاهدتها لكنت بها أعرف ، و لعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين ، وقد قيل : ليس الخبر كالمعاين ، و لو لم ينقل إلينا هذا الشاعر هذه المرأة بقوله : و صكت وجهها ، لم تعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها " ([1])
ابن فارس (ت :٣٩٥هـ) و البغدادي (ت : ١٠٩٣هـ) ترى وعيهما بالسياق ظاهرا في تأويل النصوص من ذلك ما أورداه في تحديد معنى أسلوب الدعاء في قول كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه :
هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا * وماذا يؤدي الليل حين يؤوب
فقد ذكرا أن المراد من قوله (هوت أمه) التعجب لا الدعاء، و ذلك أن الأسلوب ورد في سياق الرثاء ، و الرثاء أخو المديح كما قيل ، وهو مما حتم ألا يكون المراد بالدعاء هنا حقيقته " و المتتبع لكتابيهما يرى كثيرا مما يكشف عن وعي أئمتنا بالسياق المقالي و الحالي ([2])

([1]) الخصائص ١/ ٢٤٦ .

([2]) الصاحبي لابن فارس ٣٢٤ خزانة الأدب للبغدادي ١٠ / ٤٣٦ تحقيق عبد السلام هارون نشر مكتبة الخانجي ، و المزهر للسيوطي ٢ / ٣٣١ تحقيق جاد المولى و آخرين ط بيروت ١٩٨٦

ابن العر بي (ت : ٥٤٣هـ) يذكر ابن العربي في صدر كتابه (أحكام القرآن) أن فقه النص سيكون منظورا فيه إلى السياق على أوسع ما يكون و أتمه حيث يقول : " نذكر الآية ثم نعطف على كلماتها بل حروفها، فنأخذ بمعرفتها مفردة ، ثم نركبها على أخواتها مضافة و نحفظ في ذلك قسم البلاغة ، و نتحرز عن المناقضة في الأحكام و المعارضة ، و نحتاط على جانب اللغة ، و نقابلها في القرآن بما جاء في السنة الصحيحة ، ونتحرى وجه الجميع ، إذ الكل من عند الله " ([1])

وواضح من هذا النص أنه سينظر إلى الآية في سياق السورة وسياق القرآن الكريم كله ، وسياق السنة المطهرة فهذا فضاء النص عنده ، وقد كان أئمتنا على وعى تام بأن السنة بيان للقرآن الكريم فقها من قوله تعالى : " ثم إن علينا بيانه " (القيامة / ١٩) كما أنه يتضح من هذا النص ، أنه يشير إلى السياق المقالي .

ابن هشام (ت :٧٦١هـ) : جعل ابن هشام الحال مرادفا للسياق الخارجي عند حديثه عن أسباب الحذف ، و ذلك في قوله : " إن دليل الحذف نوعان : أحدهما غير صناعي ، و ينقسم إلى حالي و مقالي ، و الثاني : صناعي . . . " ([2])

([1]) أحكام القرآن لابن العربي ـــ المقدمة .

([2]) مغني اللبيب ٢ / ٦٠٥ عن دلالة السياق ٢٩ .

الشاطبي (ت : ٧٩٠هـ)

حديثه عن سياق الحال :

لقد كان للشاطبي ـــ رحمه الله ـــ وقفات متأنية مع السياق من ذلك مثلا قوله : " فالحاصل أن العموم إنما يعتبر بالاستعمال ، ووجوه الاستعمال كثيرة ، و لكن ضابطها مقتضيات الأحوال التي هى ملاك البيان ، فإن قوله " تدمر كل شئ بأمر ربها " (الأحقاف / ٢٥) لم يقصد به أنها تدمر السموات و الأرض و الجبال و لا المياه ، و لا غيرهما مما هو في معناها ، و إنما المقصود : تدمر كل شئ مرت عليه مما شأنها أن تؤثر فيه على الجملة ، و لذلك قال : " فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم " ([1]) وواضح من هذا النص أنه يولى المقام اهتماما بالغا في استنطاق النص ، و أن المزالق تتكاثر إذا ما كان تحديد دلالة النص بمعزل عن المقام .

ومن ذلك أيضا قوله : " معرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن ، و الدليل على ذلك أمران : أحدهما : أن علمي المعاني و البيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن ـــ فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب ـــ إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع ، إذا الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين و بحسب مخاطبين ، و بحسب غير ذلك كالاستفهام لفظه واحد و يدخله معان أخر . . . و لايدل على معناها

([1]) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ٢ / ٢٤١ تحقيق الشيخ عبد الله دراز ط دار المعرفة بيروت ١٤١٥ هـ .

المراد إلا الأمور الخارجة ، و عمدها مقتضيات الأحوال ، و ليس كـــل حال ينقل ، و لاكل قرينة يقترن بنفس الكلام المنقول ، و إذا فات نقـــل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شئ منه ، و معرفـــة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط ، فهي من المهمـــات في فهـــم الكتاب بلا بد " [١]

أهمية استحضار سياق الحال في فقه السنة المطهرة :

يرى الشاطبي ـــ رحمه الله ـــ أن سبب الترول وحاله في فقـــه الكتـــاب العزيز يقابله في السنة المطهرة سبب الورود ، و لابد من استحـــضاره في فقه السنة ، ضمانا للسلامة وعدم الخلط في الأحكام الفقهية من ذلـــك قوله : " وقد يشارك القرآن في هذا المعنى { يقصد معرفة سبب الترول ، و الذي يعرف في السنة المطهرة بسبب الورود } السنة ، إذ كـــثير مـــن الأحاديث وقعت على أسباب، و لا يحصل فهمها إلا بمعرفة ذلك ، و منه أنه نهى ـــ عليه الصلاة و السلام ـــ عن ادخار لحوم الأضاحي بعدثلاث ، فلما كان بعد ذلك قيل : لقد كان النـــاس ينتفعـــون بـــضحاياهم ، ويحملون فيها الودك ، و يتخذون منها الأسقية فقال : و ماذاك ؟ قالوا : نهيت عن لحوم الضحايا بعد ثلاث ، فقال : ـــ عليه الصلاة و السلام ـــ إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت عليكم ، فكلوا و تصدقوا وادخروا " [٢]

---

(١) الموافقات ٢ / ٣١١ .

(٢) الموافقات ٢ / ٣١٥ .

حديث الشاطبي عن السياق المقالي

تحدث الشاطبي ــ رحمه الله ــ عما يمكن أن نسميه بالسياق المقالي ، من ذلك مثلا قوله : " فأما قوله : ــ تعالى ــ (الذين آمنــوا و لم يلبســوا إيمانهم بظلم) (الأنعام / ٨٢) فإن سياق الكلام يدل علــى أن المــراد بالظلم أنواع الشرك على الخصوص ، فإن السورة من أولها إلى آخرهــا مقررة لقواعد الشرك و ما يليه ، و الذي تقدم قبل الآية قصة إبراهيم ــ عليه السلام ــ في محاجته لقومه بالأدلة التي أظهرها لهم في الكوكــب و القمر و الشمس ، و كان قد تقدم قبل ذلك قوله (و من أظلــم ممــن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) (الأنعام / ٢١) فبين أنه لا أحد أظلم ممن ارتكب هاتين الخلتين ، و ظهر أنهما المعني بهما في سورة الأنعام ؛ إبطالا بالحجة ، و تقريرا لمنزلتهما في المخالفة ؛ و إيضاحا للحق الــذي هو مضاد لهما ، فكأن السؤال إنما ورد قبل تقرير هذا المعــنى ، و أيــضا فإن ذلك لما كان تقريرا لحكم شرعي بلفظ عام كان مظنة لأن يفهم منه العموم في كل ظلم دق أو جل فلأجل هذا سألوا ، و كان ذلــك عنــد نزول السورة وهي مكية نزلت في أول الإسلام قبل تقرير جميع كليــات الأحكام . . . بل في السورة ما يدل على أن ذلك النفي وارد على ظلم معروف، و هو ظلم الافتراء على الله و التكذيب بآياته، فصارت الآيــة من جهة إفرادها بالنظر في هذا المساق مع كونها أيضا في مــساق تقريــر الأحكام مجملة في عمومها ، فوقع الإشكال فيها ، ثم بين لهــم الــنبي ــ

صلى الله عليه و سلم ـــ أن عمومها إنما القصد به نوع أو نوعـــان مـــن أنواع الظلم ، و ذلك مادلت عليه السورة " (١)

وحين نتأمل هذا النص نجد أن تحديد الدلالة عنده قـــائم علـــى الـــوعي بسياق الحال ، و ذلك في عقد الآية بتاريخ نزولها بقوله " وهـــي مكيـــة نزلت في أول الإسلام " وسياق المقال حيث نظر للآية في رحمها المقالي من أول السورة ، وما أحاط بها من بين يديها و من خلفها ،و حدد دلالتـــها بعد هذين النظرين الدقيقين .

الكتاب و السنة سياق واحد عند الشاطبي

ينظر الشاطبي إلى الكتاب و السنة على أنهما سياق واحد ، فلا ينظـــر في القرآن معزولا عن السنة يقول : " فعلى هذا لا ينبغي في الاستنباط مـــن القرآن الاقتصار عليه دون النظر في شرحه و بيانه ، وهو السنة (٢) لأنه إذا كان كليا وفيه أمور كلية كما في شأن الصلاة والزكـــاة و الحـــج و الصوم ونحوها ، فلا محيص عن النظر في بيانه " (٣) وأظن أن هذا أوســـع سياق للنظر في النصوص وفقهها عرفته الدراسات الأدبية على الإطلاق ، إذا ما و ضعنا نصوص السنة المطهرة بجانب القرآن الكريم فإنه كم هائل من البيان يجب إبصاره عند فقه آى القرآن الكريم .

---

(١) الموافقات ٢ / ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) ولهذا الفقه كتب أستاذنا الدكتور / إبراهيم الخولي كتابا جيدا بعنوان (السنة بيانا للقرآن) نشر ١٩٩٣ الدار العربية للتأليف والترجمة و النشر .

(٣) الموافقات ٢/ ٣٣٣ .

إجمال لأهمية إبصار سياقي الحال و المقال عند الشاطبي :

قال الشاطبي : ـــ رحمه الله ـــ " و القول في ذلك ـــ أى : الضابط الذي يعول عليه في مأخذ الفهم ـــ أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات و النـــوازل ، وهذا معلوم في علم المعاني و البيـــان فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم الالتفـــات إلى أول الكـــلام و آخره بحسب القضية وماقتضاه الحال فيهـــا ، لاينظـــر في أولهـــا دون آخرها ، و لا في آخرها دون أولها ، فإن القضية و إن اشتملت على جمل فبعضها متعلق بالبعض ، لأنها قضية واحدة نازلة في شئ واحـــد ، فـــلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله ، و أوله على آخره ، و إذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ، فإن فرق النظر في أجزائـــه فلا يتوصل به إلى مراده ، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض إلا في موطن واحد ، وهو النظر في فهم الظاهر بحسب اللسان العربي ، وما تقتضيه لابحسب مقصود المتكلم ، فإذا صـــح لـــه الظاهر على العربية رجع إلى نفس الكلام " ([1])

فعلى هذا يتسع مفهوم السياق عنده بحيث تكون السورة سياقا للآية ، و القرآن الكريم كله سياقا للسورة مع ضميمة سياق المقام ، أى الظـــروف التي تنزلت فيها الآية الكريمة .

([1]) الموافقات ٢ / ٣٧٥ .

إبصار السياق القرآني كله ضرورة للكشف عن سمات النظم في السورة الواحدة عند الشاطبي :

وفي ذلك يقول الشاطبي : ـــ رحمه الله ـــ " فاعتبار جهة النظم مثلا في السورة لايتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر ، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود . . . فسورة البقرة مثلا كلام واحد باعتبار النظم ، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب مابث فيها ، منها ماهو كالمقدمات و التمهيدات بين يدي الأمر المطلوب ، ومنها ماهو كالمؤكد و المتمم ، ومنها ماهو المقصود في الإنزال ، وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب ، ومنها الخواتم العائدة على ماقبلها بالتأكيد و التثبيت وما أشبه ذلك " ([1])

الشاطبي يعرض سورة (المؤمنون) نموذجا :

وقد تناول ـــ رحمه الله ـــ سورة المؤمنون نموذجا لذلك ، وهو مالم أره في تراثنا في فقه النص ، وواضح أنه كان يجعل السورة الكريمة أمام عينيه والقرآن الكريم كله مثل صفحة معروضة في عقله ، يقول بعد أن تحدث عن أن سورة المؤمنون نازلة في قضية واحدة ، وبعد أن بين أنها اشتملت على ماتشتمل عليه السور المكية ، قال : ـــ " فإذا تقرر هذا وعدنا إلى النظر في سورة المؤمنين مثلا ، وجدنا فيها المعاني الثلاثة على أوضح الوجوه إلا أنه غلب على نسقها ذكر إنكار الكفار للنبوة التي هي

([1]) الموافقات ٢ / ٣٧٦ .

المدخل للمعنيين الباقيين ــ تقرير الوحدانية و إثبات أمر البعث ــ و أنهم إنما أنكروا ذلك بوصف البشرية ترفعا منهم أن يرسل إليهم من هو مثلهم ، أو ينال هذه الرتبة غيرهم إن جاءت ، فكانت السورة تبين وصف البشرية ، وما تنازعوا فيه منها " ([1])

وهذا يكشف عن طريقته ــ رحمه الله تعالى ــ في النظر إلى البيان القرآني في إطار كلي فكلامه هذا يكشف أنه نظر في القرآن الكريم كله إلى محاورات الكفار أنبياءهم ، وانتهى إلى نتيجة هي أن هذه السورة اختصت ببيان أن إنكار النبوة سببه بشرية المرسلين ، ففي قصة نوح (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) (المؤمنون / ٢٤) وفي آخرين قال: ــ تعالى (ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه و يشرب مما تشربون و لئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) (المؤمنون / ٣٣ ، ٣٤) وفي موسى وهارون قال ربنا : (أنؤمن لبشرين مثلنا) (المؤمنون / ٤٧) ([2]) وهكذا ، ومثل هذه النتائج لا تتأتى إلا بعد النظر إلى الآية في أخواتها في قصص القرآن الكريم في قصص هؤلاء النبيين جميعا ، و ما أجمل قوله في تعليل ذكر قصص النبيين ــ عليهم السلام ــ بأنماط مختلفة من الأساليب حيث يقول : " و بالجملة فحيث ذكر قصص الأنبياء ــ عليهم السلام ــ كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وهارون ، فإنما ذلك تسلية لمحمد ــ عليه الصلاة

([1]) الموافقات ٢ / ٣٧٧ .

([2]) ينظر السابق ٢ / ٣٧٩ : ٣٨٠ .

و السلام ــ و تثبيت لفؤاده لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم لــه على أنواع مختلفة ، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله، و بذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال ، و الجميع حــق واقع لا إشكال في صحته ، و على حذو ما تقدم من الأمثلة يحتــذى في النظر في القرآن لمن أراد فهم القرآن " ([١])

الزركشي (ت :٧٩٤هـ) أكد الزركشي علــى ضــرورة مراعــاة السياق المقالي و السياق المقامي في فقه البيان القرآني ، وبين أهما جاءا في القرآن الكريم متلائمين ومتسقين ،من ذلك قوله : " وقد تنزل الآيــات على الأسباب خاصة ، و توضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآى رعاية لنظم القرآن وحسن السياق ، فذلك الذي وضعت معه الآية نازلة على سبب خاص للمناسبة ، إذ كان مسوقا لما نزل في معنى يدخل تحــت ذلك اللفظ العام ، أو كان من جملة الأفراد وضعا تحت اللفــظ العــام ، فدلالة اللفظ عليه هل هي كالسبب فلا يخرج ، و يكــون مــرادا مــن الآيات قطعا ؟ أو لا ينتهي في القوة إلى ذلك ؟ لأنه قد يــراد غــيره ، و تكون المناسبة مشبهة به " ([٢])

السيوطي (ت : ٩١١ هـ) ورد السياق عند السيوطي بمعنى التراكيب السابقة على النص ، أى السياق المقالي ، من ذلك قوله : " قولــه : ــــ تعالى ــ (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن

([١]) الموافقات ٢ / ٣٨٠ ، ٣٨١ .

([٢]) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٢٥ ط دار المعرفة بيروت ١٩٧٣ م .

إليها . . .) (الأعراف / ١٨٩) فإن الآية في قصة آدم وحـــواء كمـــا يفهمه السياق ، و صرح به في حديث أخرجه أحمد " ([1]) وواضـــح أنـــه يقصد السياق المقالي مع ضميمة الاتكاء على السنة المطهرة في فقه النص .

حديث البلاغيين عن السياق :

اتفق البلاغيون على أن البلاغة هي : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مـــع فصاحته " ([2]) و الحال عندهم مرادف للمقام ، و الذين فرقوا بين الحال و المقام قام تفريقهم على التكلف ، أما الجمهور فلم يفرق بين الحـــال و المقام ، و الحال أو المقام عندهم هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يـــورد كلامه على طريقة ما ، و قد ذكروا أن " ارتفاع شأن الكلام في الحـــسن و القبول بمطابقته للاعتبار المناسب ، و انحطاطه بعدم مطابقته "([3]) فالمقام عندهم سبب ، و ما تأتي عليه التراكيب مسبب عن المقام .

هذا ما وضحه الإمام عبد القاهر عندما قال : " و إذا قد عرفت أن مدار النظم على معاني النحو ، و على الوجوه و الفروق التي مـــن شـــأنها أن تكون فيه ، فاعلم أن الفروق و الوجوه كثيرة ، ليس لهـــا غايـــة تقـــف عندها ، و نهاية لاتجد لها ازديادا بعدها ، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة

([1]) الإتقان ١ / ١١٨ .

([2]) ينظر تلخيص المفتاح ١ / ١٢٢ ، مختصر السعد ١ / ١٢٢ ، مواهب الفتاح ١ / ١٢٢ ، ١٢٣ ، عروس الأفراح ١ / ١٢٢ ، وحاشية الدسوقي على مختصر السعد ١ / ١٢٢ ، و الأطول للعصام ١ / ٣٢ ، ٣٣ .

([3]) ينظر تلخيص المفتاح ١ / ١٣٠ ، ١٣١ ، مختصر االسعد ١ / ١٣٠ ، ١٣١ ، ومواهب الفتاح ١ / ١٣٠ ، ١٣١ ، عروس الأفراح ١ / ١٣٠ : ١٣٢ وحاشية الدسوقي ١ / ١٣٠ ، ١٣١ و الأطول ١ / ٣٢ .

لها في أنفسها ، ومن حيث هي على الإطلاق ، و لكن تعــرض بــسبب المعاني و الأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعــضها مــن بعض ، و استعمال بعضها مع بعض " ([1]) وهذا مما يجعل المقــام أساســا لتفسير النص ، و فقه بلاغته ، و حينما يفسر البلاغيون المقام أو الحــال بأنه : الأمر الداعي للمتكلم . . . لانستطيع نحن أن نضيق مفهوم هــذا الأمر الداعي عندهم ، فهو ــ فيما أبصر ــ يشمل الــدواعي الزمانيــة و المكانية ، و الاجتماعية وحال المتكلم و ثقافته ، أي : كل ما يمكن أن يحيط بالنص من ظروف خارجية ، و يمكننا أن نتلمس وعيهم بالمقام أيضا في مثل قولهم : " فمقام التنكير يباين مقام التعريف . . . وخطاب الذكي يباين خطاب الغبي " ([2]) ومن أحسن مقولات البلاغيين في هذا البــاب أيضا " لكل كلمة مع صاحبتها مقام " ([3]) وهذا يكشف عــن وعــيهم بسياق المقال و تناسب أجزائه ، و أن يكون كل ذلك ملائما للمقام .

([1]) دلائل الإعجاز ٦٩ تحقيق محمد رشيد رضا ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ .

([2]) تلخيص المفتاح ١ / ١٢٥:١٢٧ ومختصر السعد ١ / ١٢٥ : ١٢٧ ومواهب الفتاح ١ / ١٢٥: ١٢٩ ، و عروس الأفراح ١ / ١٣٠ ، و حاشية الدسوقي ١ / ١٢٥ : ١٢٩ .

([3]) تلخيص المفتاح ١ / ١٢٩ ، و مختصر السعد ١ / ١٢٩ ومواهب الفتاح ١ / ١٢٩ وحاشية الدسوقي ١ / ١٢٩ .

علم المناسبات في تراثنا تطبيق لمفهوم السياق المقالي :

يمكننا أن نعد علم المناسبات في تراثنا تطبيقا لمفهوم السياق المقالي فقد نظروا إلى تناسب الآيات و السور فالزركشي يرى أنه " ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شئ عن كونها تكملة لما قبلها أو مستقلة ، ثم المستقلة ، ماوجه مناسبتها لما قبلها ، و قد ذكروا أن في ذلك علما جما و قالوا أيضا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقت له " ([1])

وقد ذهب أبو جعفر النحاس إلى أن تأليف القرآن من إعجازه ([2]) و أنه أصل من أصول المسلمين لايسعهم جهله ؛ لأنه لو كان التأليف من غير الله و رسوله لسوعد بعض الملحدين على طعنهم ([3])

وقد ذهب الفخر الرازي — في تفسير سورة البقرة — إلى من تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، و في بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه ، و شرف معانيه ، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ([4])

ومن أعظم الكتب المؤلفة في هذا العلم (البرهان في تناسب سور القرآن) لابن الزبير الثقفي (ت : ٧٠٨ هـ) وقد ذكر — رحمه الله — أنه لم يسبق بالتأليف في هذا الباب حيث قال : " لم أر في هذا الضرب الخاص — يعني علم المناسبة — شيئا لمن تقدم و غبر ، و إنما بدر لبعضهم

([1]) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٣٧ .

([2]) الإتقان ٢ / ١٣٨ .

([3]) الناسخ و المنسوخ للواحدي ١٥٩ ط مكتبة المتنبي دون تاريخ .

([4]) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٧ / ٣٤ .

توجيه ارتباط آيات في مواضع مفترقات ، و ذلك في الباب أوضـــح ، و مجال الكلام فيه أفسح و أسرح ، و أما تعلق السور على مـــا ترتـــب في الإمام ــ يقصد مصحف عثمان ــ واتفق عليه الصحابة الأعلام فمـــا لم يتعرض له ــ فيما أعلم ــ و لا قرع أحد هذا الباب ممن تأخر أو تقـــدم (١)

وقد توج هذه الجهود برهان الـــدين البقـــاعي ــ رحمـــه الله ــ بتأليف كتابه المتميز الموسوم بـــ (نظم الدرر في تناسب الآيات و السور) و الذي جمع فيه بين تناسب الآيات و تناسب السور ، و قد ذكر ـــ رحمه الله ـــ أن للإعجاز طريقين " أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بحـــسب التركيب ، و الثاني : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب ،و الأول أقرب تناولا و أسهل ذوقا ، فإن كل من سمع القرآن من ذكي و غـــبي يهتـــز لمعانيه ، و تحصل له عند سماعه روعة بنشاط ، و رهبة مـــع انبـــساط لا تحصل عند سماع غيره ، وكلما دقق النظر في المعنى عظم عنـــده موقـــع الإعجاز ، ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلتـــه ، وما تلاها خفي عليه وجه ذلك ، ورأى أن الجمل متباعـــدة الأغـــراض متنائية المقاصد ، فظن أنها متنافرة فحصل له مـــن القـــبض و الكـــرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز و البسط ، و ربمـــا شـــككه ذلك بكثير ، و زلزل إيمانه ، وزحزح إيقانه ، و ربما وقف مكـــيس مـــن أذكياء المخالفين عن الدخول في هذا الدين ، بعدما وضحت لديه دلائله

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الثقفي ٧٢ تحقيق د / سعيد الفلاح ط جامعة قار يونس ١٩٨٨ م .

، و برزت له من جمالها دقائقه([1]) ، وهذا من أجود الكلام في فقه السياق المقالي .

وقد طبق على صفحات كتابه ماذكره في مقدمته مما يكشف عن بصيرته بالسياق و أبعاده ، وقد نقل عن المشدالي المغربي الطريقة في فقه السياق المقالي فقال : " الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض من المقدمات ، و تنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب و البعد من المطلوب ، و تنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام و اللوازم التابعة له ، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، و إذا فعلته تبين لك ــ إن شاء الله ــ وجه النظم مفصلا بين كل آية و آية في كل سورة و الله الهادي ([2])

([1]) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور للبقاعي ١ / ٧ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ .

([2]) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور لبرهان الدين البقاعي ١ / ١٥٢ تحقيق د / عبد السميع حسانين ط الرياض ١٤٠٨هـ .

أثر السياق في اصطفاء الألفاظ و الأساليب في تراث المفسرين ، وكتب مشتبه النظم .

كتب التفسير ، وكتب مشتبه النظم فيها حشد هائل يكشف عن وعـــي أئمتنا بأثر السياق في اصطفاء الألفاظ و الأساليب، و ليس بوسعنا هنا أن نستقصي كل كتب التفسير و مشتبه النظم ، و إنما نعرض نمـــاذج مـــن الميدانين تقفنا على تراثنا في هذا الجانب .

الزمخشري (ت : ٥٣٨) له وقفات كثيرة في هذا الجانب نورد منها مـــا قاله عند الحديث عن سبب انقطاع قوله : تعالى ــ (إن الذين كفـــروا سواء عليهم أأنذرهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (البقرة / ٦) عن قوله : ــ تعالى ــ (أولئك على هدى من ربهم و أولئك هم المفلحـــون) (البقرة / ٥) " فإن قلت :لم قطعت قصة الكفار عن قصة المـــؤمنين، و لم تعطف كنحو قوله : ــ تعالى ــ (إن الأبرار لفي نعيم و إن الفجار لفي جحيم) (الانفطار / ١٣ ، ١٤) وغيره من الآي الكثيرة ؟ قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت ؛ لأن الأولى ــ فيما نحن فيـــه ــ مسوقة لذكر الكتاب ، و أنه هدى للمتقين ، و ســـيقت الثانيـــة ؛ لأن الكفار من صفتهم كيت و كيت ، فبين الجملـــتين تبـــاين في الغـــرض و الأسلوب ، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف " [1] وهذا حديث عن أثر السياق في اصطفاء الأساليب .

---

[1] الكشاف ١ / ١٤٩ .

و يتحدث عن سبب ختم الآية في قوله : ـــ تعـــالى ـــ (ألا إنهـــم هـــم السفهاء و لكن لا يعلمون) (البقرة / ١٣) و التي قبلها ختمت بقولـــه : ـــ تعالى ـــ بـــ (لا يشعرون) (البقرة /١٢) فيقول : " فإن قلت : لم فصلت { يبدو أن فصلت هنا معناها: ختمت ، و أنهيت } هذه الآية بـــ (لا يعلمون) و التي قبلها بـــ (لا يشعرون) ؟ قلـــت : لأن أمـــر الديانة و الوقوف على أن المؤمنين على الحق ، وهم على الباطل يحتـــاج إلى نظر و استدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة ، و أما النفاق ، و مـــا فيه من البغي المؤدي إلى الفتنة و الفساد في الأرض فأمر دنيوي مبني على العادات معلوم عند الناس خصوصا عند العرب في جاهليتهم ، وما كان قائما بينهم من التغاور و التنـــاحر و التجـــاذب و التحـــارب ، فهـــو كالمحسوس المشاهد ، و لأنه قد ذكر السفه ، وهو جهل ، فكـــان ذكـــر العلم معه أحسن طباقا له ، مساق هذه الآية بخلاف ما ســـيقت لـــه أول قصة المنافقين ، فليس بتكرير ؛ لأن تلك في بيان مذهبهم ، و الترجمة عن نفاقهم ، و هذه في بيان ما كانوا يعملون عليه مع المؤمنين من التكـــذيب لهم و الاستهزاء بهم " ([1]) وواضح هنا أنه استخدم السياق الخـــارجي في التعليل لختم الأولى ، و استخدم السياق المقالي للتعليل لختم الثانية .

البقاعي (ت : ٨٨٥ هـــ) هو أكثر المفسرين اشتغالا بالسياق ، فمن النادر جدا أن تخلو صفحة من تفسيره العظيم الحجم مـــن ذكـــر كلمة السياق ؛ لذا سأذكر مثالا واحدا في سورتي (المعارج و عـــبس)

([1]) السابق ١ /١٨٣ ، ١٨٤ .

حين تحدث عن الترتيب في قوله : ـــ تعالى ـــ (يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه و صاحبته و أخيه و فصيلته التي تؤيه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه) (المعارج / ١١:١٤) وقوله (فإذا جـــاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه و أمه و أبيه و صاحبته و بنيه لكل امـــرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) (عبس / ٣٣: ٣٧)

قال في المعارج : " و لما كان السياق للافتداء بـــدأ بـــأعزهم في ذلك بخلاف ما يأتي في عبس ، فقال : ببنيه لشدة ما يرى ، و لمـــا ذكـــر ألصق الناس بالفؤاد و أعز من يلزمه النصرة و الذب عنه أتبعه ما يليه في الرتبة و المودة ، و ما الافتداء به ـــ لا سيما عند العرب ـــ مـــن أقـــبح العار ، فقال : و صاحبته " ([1]) و قال في سورة عبس : " و لمـــا كـــان السياق للفرار قدم أدناهم رتبة في الحب و الذب فأدناهم علـــى ســـبيل الترقي ، و أخر الأوجب في ذلك بخلاف ما في سأل " ([2])

العلامة أبو السعود (ت : ٩٥١ هـــ) نعـــرض لقطـــات مـــن بصيرته ـــ رحمه الله ـــ لأثر السياق في اصطفاء الأساليب ، مـــن ذلـــك حديثه عن تأنيث الضمير في قوله : ـــ تعالى ـــ (فلما وضعتها قالت رب إني و ضعتها أنثى . . .) (آل عمران / ٣٦) حيث قـــال : " قـــال : (فلما و ضعتها) أي : ما في بطنها ، و تأنيث الضمير العائـــد إليـــه لأن المقام يستدعي ظهور أنوثته " ([3])

([1]) نظم الدرر في تناسب الآيات و السور للبقاعي ٨ / ١٤٨ .
([2]) نظم الدرر ٨ / ٣٣٣ .
([3]) إرشاد العقل السليم ٢ / ٢٨ .

كما تحدث عن أثر السياق في اصطفاء (يخلق) على (يفعل) في قوله : ـ تعالى ـ (قالت رب أنى يكون لي ولد و لم يمسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء) (آل عمران / ٤٧) و ذلك في قوله : " خلا أن إيراد (خلق) ههنا مكان (يفعل) هناك { يشير إلى قوله : تعالى ـ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر و امرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء (آل عمران / ٤٠) } لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسها بشر أبدع و أغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ فان ، فكان الخلق المنبئ عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل " ([1])

كما نجد عينه على السياق في تقدير المحذوف ، من ذلك ما قاله عند قوله : ـ تعالى ـ (أ فتطمعون أن يؤمنوا لكم . . .) (البقرة / ٧٥) حيث قال : " و الهمزة لإنكار الواقع و استبعاده ، كما في قولك : أتضرب أباك ، لا إنكار الوقوع ،كما في قوله : أأضرب أبي ؟ و الفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، و يستدعيه نظام الكلام " ([2]).

كما أن السياق هو المرجح عنده لإجراء الأسلوب على الحقيقة أو المجاز من ذلك ما قاله عند قوله : ـ تعالى ـ (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) (البقرة / ٨٥) حيث رجح أن المعنى : النهي الشديد عن تعرض بعض بني إسرائيل لبعض بالقتل و الإجلاء ، ثم قال : " و أما قيل من أن المعنى : لا تباشروا ما يؤدي إلى

([1]) إرشاد العقل السليم ٢ / ٣٧ .

([2]) السابق ١ / ١٢٤ .

قتل أنفسكم قصاصا ، أو ما يبيح سفك دمائكم و إخراجكم من دياركم أو لا تفعلوا ما يرديكم و يصرفكم عن الحياة الأبدية ؛ فإنه القتل في الحقيقة ، و لا تقترفوا ما تحرمون به عن الجنة ، التي هي داركم ؛ فإنه الجلاء الحقيقي ، فمما لا يساعده سياق النظم الكريم " ([1])

الشهاب الخفاجي (ت : ١٠٦٩ هـ) السياق كان وراء تأويلاته معاني الألفاظ و الأساليب ، ومن أظهر ذلك ما أورده عند قوله : ـ تعالى ـ (إن تعذبهم فإنهم عبادك و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) (المائدة / ١١٨) حيث قال : " وقع لبعض الطاعنين في القرآن من الملاحدة أن المناسب ما وقع في مصحف ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بدل العزيز الحكيم : العزيز الغفور ؛ لأنه مقتضى قوله : (و إن تغفر لهم) كما نقله ابن الأنباري ـ رحمه الله تعالى ـ و أجاب عنه ـ لسوء فهمه ظن تعلقه بالشرط الثاني فقط ؛ لكونه جوابه ـ و ليس كما توهم بفكره الفاسد ، بل هو متعلق بهما ، ومن له الفعل و الترك (عزيز حكيم) فهذا أنسب و أدق و أليق بالمقام " ([2])

ومن أمثلة فهمه الأسلوب بمعونة السياق حديثه عن الواو في قوله : ـ تعالى ـ (و إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) (البقرة / ١١) حيث قال : " و يجعل المعتمد بالعطف

([1]) إرشاد العقل السليم ١ / ١٢٤ .

([2]) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣ / ٣٠٦ .

مجموع الأحوال ، و إن لزم فيه عطف الفعلية على الاسمية كان أرجـــح بحسب السياق ، و نمط تعديد القبائح " ([1])

الصاوي (ت : ١٢٤١ هـــ) من أمثلة بصره السياق في تقدير المحذوف ما قاله عند قوله : ـــ تعالى ـــ (و إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . .) (البقرة / ٨٣) فقد علق قول الجلال (واذكر ، أي : يا محمد) بقوله : " و المناسب للسياق : اذكروا ، و يكون خطابا لبني إسرائيل " ([2])

و من أمثلة تأويله الأسلوب بما هو ألصق بالسياق ما قاله عنـــد قوله : ـــ تعالى ـــ (اذهب أنت و ربك فقاتلا إنـــا ههنـــا قاعـــدون) (المائدة / ٢٤) حيث قال : " قيل : عن الواو للعطف ، و (ربـــك) معطوف على الضمير المستتر في (اذهب) . . . أي : و ليذهب ربك ، و اختلف في الرب ، فقيل : هو المولى ـــ جـــل و عـــلا ـــ فإســـنادهم الذهاب إليه على حقيقته ؛ لأنهم كانوا يعتقدون التجـــسيم ، و قيـــل : المراد به هارون ، و سموه ربا ؛ لأنه كان أكبر من موسى بـــسنة ، وهـــو الأحسن ، و يدل عليه السياق " ([3])

كما أورد الصاوي ما يكشف عن بصيرة السيوطي للسياق ، من ذلك ما أورده عند قوله : ـــ تعالى ـــ (إنما يريد الله ليـــذهب عـــنكم الرجس أهل البيت و يطهـــركم تطهـــيرا) (الأحـــزاب / ٣٣) قـــال

([1]) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ١ / ٣٢٧ .

([2]) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ١ / ٣٨ .

([3]) السابق ١ / ٢٦٠ .

السيوطي : " (أهل البيت) أي : نساء النبي ـــ صلى الله عليه و سـلم ـــ قال الصاوي : قصره عليهن لمراعاة السياق " ([1]) يقصد السياق المقالي ، ومنه ما قاله عند قوله : ـــ تعالى ـــ (و أنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس و ليعلم الله من ينصره و رسله بالغيب) (الحديد / ٢٥) قال السيوطي : " بأن ينصر بآلات الحرب من الحديد و غيره ، قال الصاوي : إنما خص النصر بذلك لكون المقام ، و السياق يقتضيه " ([2])

الآلوسي (ت : ١٢٧٠ هـ) يكشف النظر في تفسير الآلوسي أن للسياق عنده أثرا بالغا في التأويل ، وفقه الأساليب ، من ذلك ما قاله عند قوله : تعالى ـــ (أنى يحيي هذه الله بعد موتها . . .) (البقرة / ٢٥٩) حيث قال : " المشار إليه إما نفس القرية بدون تقدير ، وهو الظاهر ، فالإحياء و الإماتة مجازان عن العمارة و الخراب ، أو بتقدير مضاف ـــ أي أصحاب هذه القرية ـــ فالإحياء و الإماتة على حقيقتها ، و إما عظام القرية البالية ، و جثثهم المتفرقة و السياق دال على ذلك " ([3])

ومنه أيضا حديثه عن تقديم خلق الأرض ، وما فيها على السموات ، في الكلام على قوله : تعالى ـــ (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات . . .)

([1]) السيوطي و الصاوي عليه ٣ / ٢٦٠ .

([2]) السابق ٤ / ١٦٧ .

([3]) روح المعاني للآلوسي ٢ / ٢١ .

(البقرة / ٢٩) حيث نظر إلى قوله : ـــ تعالى ـــ (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين و تجعلون له أندادا ذلـــك رب العـــالمين) (فصلت / ٩) و قوله (أ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكهـــا فسواها و أغطش ليلها و أخرج ضحاها) (النازعات / ٢٧ : ٣٢)و قد و سع الكلام على أيهما خلق أولا ، و الذي يعنينا في هذا المقام ، قوله : " بقي ههنا بيان النكتة في تغيير الأسلوب حيث قدم في الظاهر ههنـــا ، و في حم السجدة (فصلت) خلق الأرض و ما قبلـــها علـــى خلـــق السموات ،و عكس في النازعات ، و لعل ذلك ؛ لأن المقام في الأولـــين مقام الامتنان ، فمقتضاه تقديم ما هو نعمة نظر إلى المخاطبين فكأنه قال : ـــ سبحانه وتعالى ـــ هو الذي دبر أمركم قبل خلق السماء ، ثم خلـــق السماء ، و المقام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة ،فمقتضاه تقديم ما هو أدل على كمالها " ([١]) و كثير من المفسرين لهم عناية بالغة بالـــسياق ، و لكنا نكتفي بما عرضناه خشية الإطالة ، أضف إلى ذلـــك مـــا كتـــب في التراث من كتب تعالج مشتبه النظم في الذكر الحكيم ، ككتـــاب (درة التنزيل و غرة التأويل) للخطيـــب الإســـكافي ، و (مـــسائل الـــرازي و أجوبتها) لزين الدين الرازي ، و (البرهان في توجيه متشابه القـــرآن لما فيه من الحجة و البيان) لتاج القراء الكرماني ، و أوسع ما كتـــب في هذا الميدان كتاب (ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد و التعطيل) لابن الزبير الثقفي الغرناطي ، وهو ما سنصطفي منه بعـــض النمـــاذج علـــى

([١]) السابق ١ / ٢١٩ .

الكشف عن فقههم ــ رحمهم الله تعالى ــ لأثــر الــسياق في اصــطفاء الأساليب و الألفاظ .

ابن الزبير (ت : ٧٠٨ هــ) له شغل خاص بالسياق ، عكسه مؤلفاه (البرهان في تناسب سور القرآن) و (ملاك التأويل) من أمثلــة ذلك ما قاله في التعليل لاختصاص سورة المرسلات بتكرار قولــه : ــــ تعالى ــ (ويل يومئذ للمكذبين) و الفصل بين تكرارها بآيــات أخــر ، فقد قال عند قوله : ــ تعــالى ــ (إنــا كــذلك نجــزي المحــسنين) (المرسلات / ٤٤) حيث قال : " ثم عادت الآي إلى مــا بنيــت عليــه السورة من وعيد المكذبين و تخويفهم إلى آخر السورة ، و تكــرر فيهــا ذلك الدعاء بالويل للمكذبين ثلاث مرات طوبق بها عدد آيات و صــف المتقين ؛ ليكون زيادة في تنكيل المكذبين و تحسيرهم بسماع حــال مــن حاله على الضد منهم ، فتلك العشرة التي تضمنتها السورة " ([1])

ومنه أيضا ما قاله في تعليل اختصاص سورة النازعات بقوله : ــ تعالى ــ (فإذا جاءت الطامة الكبرى) (النازعات /٣٤) و اختــصاص سورة عبس بقوله : ــ تعالى ــ (فإذا جاءت الصاخة) (عبس / ٣٣) و الذي يهمنا في هذا المقام قوله : " فسورة النازعات على الجملة أشــد في التخويف و الترهيب ، فناسبها أبلغ العبارتين من أسمــاء القيامــة في التخويف و الإنذار بحالها ، و ليس سورة (عــبس و تــولى) كــسورة النازعات في التخويف و الترهيب ، فناسبها إيراد اسم القيامة بالــصاخة

([1]) ملاك التأويل ٢ / ١١٢٦ .

،إذ ليس في الإرهاب كالطامة ، فجاء كل على ما يناسب ، و لايناسب عكس الوارد على ما تمهد " ([1])

ومنه أيضا الكلام على اختصاص سورة التكوير بقوله : تعالى ـــ (و إذا البحار سجرت) (التكوير /٦) و اختصاص الانفطار بقوله :ـــ تعالى ـــ (و إذا البحار فجرت) (الانفطار /٣) حيث قال : " يسأل عن اختصاص الأولى بقوله: (سجرت) و الثانية بقوله : ـــ تعالى ـــ (فجرت) ؟ و الجواب عن ذلك ـــ و الله أعلم ـــ أن قوله: (سجرت) معناه :ملئت من قولك : سجرت التنور إذا ملأته بالحطب ، و قرئ مخففا و مثقلا ، و المعنى واحد ، و المراد اجتماع مياهها ، و أما قوله : (فجرت) فتح بعضها إلى بعض ، و اختلط العذب بالمالح ، فصار بحرا واحدا بزوال البرزخ الحاجز بينهما ، وكل من الإخبارين يؤدي معنى غير المعنى الآخر لما بينهما من الشبه ؛ و لهذا جرى كلام أكثر المفسرين على تفسير كل واحد من اللفظين بما يحرز المجموع من معنييهما ، و تفاصيل ذلك على ما ذكرته مما يقتضي التباين ، لا الترادف و الإخبار بكل واحد منهما مقصود معتمد لكمال المراد ، و إنما خصت سورة الانفطار بلفظ الانفجار ليناسب مطلع السورة " ([2]) و كذلك سجرت ناظر أيضا إلى مطلع سورة التكوير ، فالشمس كوكب ناري ، فناسب كل سياقه و لاءم كل مقامه .

([1]) السابق ٢ / ١١٣٦ .

([2]) ملاك التأويل ٢ / ١١٣٧ .

السياق في الدراسات الحديثة و المعاصرة :

د / تمام حسان : السياق عنده يرادف الحال أو المقـــام ، و قـــد وسع القول في المقام جامعا بين القديم و الحديث منطلقــا مـــن مقولـــة البلاغيين " لكل مقام مقال " ، فهو يرى أن : " المقـــام هـــو حـــصيلة الظروف الواردة طبيعية كانت أو اجتماعية ، أو غير ذلـــك في الموقـــف الذي تم فيه أداء المقال " (١) بل إن المقام ـــ وحده ـــ عند تعدد المعـــنى للكلمة الواحدة ، أو تأرجح التعبير بين الحقيقة و المجاز يحـــدد المعـــنى " فالكلمة المفردة . . . يمكن أن تدل على أكثر من معنى ، وهـــي مفـــردة لكنها إذا وضعت في مقال يفهم في ضوء مقام انتفى هذا التعـــدد عـــن معناها ، و لم يعد لها في السياق إلا معنى واحد ؛ لأن الكلام ، وهو مجلى السياق ، لابد أن يحمل من القرائن المقالية (اللفظية) و المقامية (الحالية) ما يعين معنى واحدا لكل كلمة ، فالمعنى بـــدون المقـــام . . . متعـــدد ، ومحتمل ؛ لأن المقام هو كبرى القرائن ، و لايتعين إلا بالقرينة " (٢)

وقد بين أن التحديد الدقيق للدلالة يعتمد على أمرين أساسيين : المقال ، وهو مكون من المعنى الوظيفي بالإضافة إلى المعنى المعجمي ، و المقام ، وهو مكون من ظروف أداء المقال ، وهي التي تـــشتمل علـــى القـــرائن الحالية ، وعد فكرة المقام عند البلاغيين البلغاء دلالة على فطنتهم إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، و أنها شديدة الارتباط بثقافـــة الـــشعب الـــذي

---

(١) اللغة العربية معناها و مبناها د / تمام حسان ٤١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م .

(٢) السابق ٣٩ .

يتكلمها ، و أن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنـــواع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمى كل منها مقام ، فمقام الفخر غير مقام المدح ، وهما يختلفان عن مقام الدعاء أو الاستعطاف أو الهجاء وهلم جرا ، و دلل على ذلك بأن المقال يمكن أن يكون واحدا ، غير أن المقـــام الذي يلقى فيه هو الذي يحدد دلالتها ، كأن يقول الرجل لامرأته :أهـــلا بالجميلة ، فكلمتا (أهلا والجميلة) لهما دلالة معجمية واحـــدة ، لكـــن الموقف الذي تقال فيه هذه العبارة يختلف ، فيمكن أن يكون وصفا لهـــا حقيقة بالجمال ، و يمكن أن توبيخا وسخرية إلى آخره .

وقد بين أن الأصوليين أوجبوا على من يتصدى لاستخراج الأحكام مـــن القرآن أمورا لاينبغي أن يغفل عنها هي في الواقع مقام فعليه مثلا :

١ ــ ألايغفل عن بعضه في تفسير بعضه .

٢ ــ ألا يغفل عن السنة في تفسيره .

٣ ــ أن يعرف أسباب النزول .

٤ ــ أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب ، و يمكـــن إجمـــال كـــل مامضى في كلمة (المقام) وقد وضع أسسا لتبويب المقام وتحديـــده في إطار الثقافة الشعبية وهى : (دور الفرد في المجتمـــع ــ دور الفـــرد في الأداء ــ غاية الأداء) ([1])

([1]) اللغة العربية معناها و مبناها ٣٣٦ : ٣٥٦ .

كما تحدث في موطن آخر عن وسائل الترابط في السياق ، و بين أن مـــا يجعل السياق سياقا مترابطا ، إنما هي ظواهر في طريقة تركيبه ورصـــفه ، لولاها لكانت الكلمات المتجاورة غير آخذ بعـــضها بحجـــز بعـــض في علاقات متبادلة تجعل كل كلمة منها واضحة الوظيفة في هذا الـــسياق ، وتنقسم الوسائل التي تخلق هذا الترابط إلى ثلاثة أقسام :

١ ـــ وسائل التماسك السياقي .

٢ ـــ وسائل التوافق السياقي .

٣ ـــ وسائل التأثير السياقي .

وقد بين أن الأول يعني به العلاقات المتشابكة بين أجزاء السياق ، أي : بين الأبواب النحوية فيه من حيث الحالة و الزمن و الجهة ، و أن الثاني يتجلى في التوافق الشكلي من حيث النوع (التذكير و التأنيـــث) وثانيها : العدد (الإفراد ، و التثنية ، و الجمـــع) وثالثهـــا : الـــشخص (التكلم و الحضور و الغيبة) وبين أن الأول و الثاني أثران مـــن آثـــار التأثير السياقي ([1]) وهو في كل يعني سياق المقال .

جبور عبد النور : عرف السياق بأنه : هو مجرى الأحداث في روايـــة أو مسرحية ، أو تسلسل أحداث مترابطة ، بحيث تتألف منها حبكة ببدايـــة وتتام ونهاية ([2]) وواضح أنه تعريف للسياق في جـــنس أدبي واحـــد ، لا يصلح تطبيقه على سواه .

([1]) ينظر مناهج البحث في اللغة د / تمام حسان ٢٠٣: ٢٢٤ ط الأنجلو مصر ١٩٩٠ م .

([2]) المعجم الأدبي ١٤٢ ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤ م .

د / محمد عبد المطلب : لقد عقد في كتابه (البلاغة و الأسلوبية) فصلا مسهبا عن السياق استغرق ستا و أربعين صفحة ، انطلق فيه من مقولة البلاغيين (لكل مقام مقال) و (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) ، و بين أن فكرتي المقام و المقال في مفهوم البلاغيين مرتبطتان بالبعد الزماني و المكاني للكلام ، و ذلك أن الأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغة على وجه معين ، إما أن يتصل بزمن هذه الصياغة ، فيسمى الحال ، و إما أن يتصل بمحلها فيسمى المقام ؛ لأن كل كلام لابد له من بعد زماني و بعد مكاني يقع فيه .

وقد ذكر أن فكرة المقام تمثل اليوم مركز الدلالية الوضعية ، من حيث كانت مبرزة للجانب الاجتماعي الذي تظهر فيه العلاقات و الأحداث و الظروف المقتضية لإيراد الكلام على صورة مخصوصة ، و قد بين أنه من الضروري لفهم نص معين أن يعاد تصور المقام الأصيل ، و كلما كان التصور دقيقا كان إدراك النص أيسر ، و فهم علاقاته متاحا للدارس أو الناقد .

أسس السياق المقالي :

أشاد بما ذكره ابن الأثير فيما يحتاج فيه إلى صناعة الكلام، و أنه يرتكز على ثلاثة أشياء :

الأول : اختيار الألفاظ المفردة ، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة فإنها تتميز وتنتقى قبل النظم .

الثاني : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ، لئلا يجئ الكلام قلقا نافرا عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها .

الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلا على الرأس ، و تارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شنفا في الأذن ، و لكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه ([1]) وقد بين أن الحذف يعتمد على دلالة القرائن المقالية أو الحالية .

وقدبين أن أساليب الذكر و الحذف وغيرها ، إنما يخضع اختيارها لحاجة السياق ، ثم ذكر ـــ متكئا على أقوال البلاغيين ، وعبد القاهر خاصة ـــ سياقات الذكر و الحذف و التقديم و التأخير و التعريف و التنكير ([2])

هذا وقد بين ـــ نقلا عن د/ مصطفى ناصف ـــ أن " فكرة السياق قد نالت جهدا من النقاد القدامى ، و لكنها لم تكن متبلورة تماما ، بحيث كان السياق في الأعمال القديمة ينصب على معنى العبارة المفردة ، أو بمعنى عدة عبارات مأخوذة على هذا الشكل المتمايز الأجزاء ، على نحو ما تتمايز حبات العقد فيما بينها ، و الحق أن المعنى يفهم من السياق أكثر مما يفهم من الأحدات الصريحة التي تؤلفه ، أي أن السياق قد يعطى

([1]) البلاغة و الأسلوبية د / محمد عبد المطلب ٣٠٨، ٣٠٩ ط مكتبة لبنان ١٩٩٤ و النص في المثل السائر ١ / ٢١٠ ط دار نهضة مصر .

([2]) ينظر البلاغة و الأسلوبية ٣٠٥ : ٣٥٠ .

المدلولات التي لايمكن أن تعزى بشكل بسيط إلى وحدة معينة أو وحدات مضمومة بطريقة آلية " ([1]) و لكنا لسنا معه في هذا الرأي لا هو ، و لا د / مصطفى ناصف ، وذلك للذي أوردناه من تـراث القـدماء ، ممـا يكشف عن مساحة السياق في منظورهم ، وهي تمتد إلى فضاءات شاسعة ، و الظاهر أنهما لم يطلعا إلاعلى التـراث اللغـوي و الأدبي في هـذا الخصوص ، و لم يطلعا على تراث الدراسات القرآنية و النبوية .

د / عبد الفتاح البركاوي : كتب بحثا مميزا و مـسهبا بعنـوان (دلالة السياق بين التراث و علم اللغة الحديث) جمع فيه بـين أقـوال القدماء و الدراسات الغربية بتنوعاتها المختلفة ، في مفهـوم الـسياق ، و أسس نظرية السياق ، و قد بين أن فكرة (لكل مقام مقـال) فكـرة عربية أصيلة ، و أنها منسوبة لأكثم بن صيفي ، و تمثلها الحطيئة في شعره و أنها ليست مأخوذة عن اليونان كما حلا لبعضهم أن يقول هذا ، و قد بين أن سيبويه عرف سياق الحال أو المقام ، وكذلك ابن جني و الجاحظ ، كما بين أن علماء العربية كانوا على وعي بمراعاة أحوال المخاطبين من الناحيتين الاجتماعية و الثقافية ،و استدل لذلك بقول بشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة :" و ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعـاني ويـوازن بينها وبين أقدار المستمعين و أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، و لكل حالة مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعـاني

([1]) البلاغة و الأسلوبية ٣٢١ ، و الكلام في نظرية المعنى في النقد العربي د / مصطفى ناصف ١٦١ ، ١٦٢ ط دار القلم بيروت ١٩٦٥ م .

على أقدار المقامات ، و أقدار المستمعين على أقدار تلك المقامــات . . . و الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهــم الــسوقي رطانة السوقي ، وكلام الناس في طبقات كمــا أن النــاس أنفــسهم في طبقات . . . ومدار الشرف على الصواب ، و إحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ([١])

كما بين أن أهم أسس نظرية السياق في التراث العربي ترتكز على مايلي :ـ

١ ـــ أن الجملة هي وحدة التحليل الدلالي ، من حيث إنهم عرفوا الكلام الإنساني بأنه هو كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ، وهو الذي يــسميه النحاة الجمل نحو : زيد أخوك .

٢ ـــ أن تراثهم مشحون بما يكشف عن مراعــاهم المقــام أو الــسياق الخارجي في تحديد الدلالة ، و ذلك واضح في تراث اللغويين و الفقهــاء و المفسرين و شراح الحديث .

٣ ـــ أن علماء العربية كانوا على وعي تام بما يسمى قيود التوارد ، من ذلك مثلا ما ذكره المسيب بن علس عندما ذكر طرفة قوله :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره * بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال لطرفة : استنوق الجمل ، أى : أنك كنت في صفة جمل ، فأخطأت في ذلك ، و استعملت ما من حقه أن يكون من صفة النوق ، ذلــك أن

([١]) ينظر دلالة السياق ٥٤ : ٧٣ .

الصيعرية سمة في عنق الناقة خاصة ، وقال أبو علي في التذكرة : الصيعرية وسم لأهل اليمن لم يكن يوسم به إلا النوق .

٤ ـ مراعاة كل الوظائف التي تنهض بها الوحدات اللغوية من حيث مراعاة وظائف الوحدات الصوتية و الصرفية و النحوية و المعجمية عند فهم النصوص و تحليلها ([1])

وقد انتهى إلى أن السياق في الفكر الغربي يشمل ما يلي : ـ

١ـ ما يحيط بالوحدة اللغوية المستعملة في النص .

٢ ـ قيود التوارد المعجمي التي تراعى عند استعمال أكثر من وحدة لغوية مثال ذلك في اللغة العربية استعمال كلمة الأشهب مع الخيل ، و الأملح مع الغنم ، و الأزهر مع الإنسان ، و ذلك عند إرادة التعبير عن بياض اللون .

٣ ـ نص لغوي يتسم بسعة نسبية ، ويؤدي معنى متكاملا سواء أكان ذلك النص مكتوبا أم متكلما به .

٤ ـ الأحوال و المواقف الخارجية ذات العلاقة بالكلام . ([2])

د / سعد مصلوح : هو ينطلق في حديثه عن السياق من أشهر مقولتين للسلف في هذا الموضوع ، وهما (لكل مقام مقال) ومن تعريف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، و بين أن هاتين المقولتين تصلحان أساسا لجميع الاتجاهات و المدارس في العلوم اللسانية

([1]) ينظر دلالة السياق ٦ : ٧٣ .

([2]) ينظر دلالة السياق ٢٥ : ٣٠ ، ٤٥ : ٧٣ .

خاصة ، و الإنسانية عامة ، و أنه لا بد من وجود علاقة يمكن تجاوزهـا ـــ تنظيرا أو تحليلا ـــ بين المقال و ما يكتنفه من ظروف ومواقف وسياق اجتماعي ، و بين أن جعل المفسرين و الأصوليين المعرفة بأسباب النـزول أصلا من أصول تفسير القرآن الكريم ، و استنباط الأحكام لا يقومان إلا به ، ليس إلا استحياء للمقام ، لا مندوحة عنه لفهم المقال .

و إذا كان تحليل المقال في سياقه المقامي واجبـا في اللسانيات الاجتماعية و التاريخية و النفسانية ، فإنه في مجـال التحليـل الأسـلوبي أوجب ، و العلاقة بين المقام و المقال تسير في اتجاهين على نحو مـستمر ، فكما أن المقال دليل على المقام ، فكذلك تكون المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال ، بل إن فنونا من القول و الكتابـة كالمعـاريض و التـوبيخ و السخرية وغيرها تعتمد في تشكيلاتها الأسلوبية ، و في بلوغ غايتها من التأثير و الإبلاغ على المفارقة القائمة بين أجزاء المقال ، أو المفارقة القائمة بين المثال و المقام ، و قد بين أن فكرة المقام لها أهمية محوريـة في عمليـة التشكيل الأسلوبي ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الدراسات الغربيـة في هـذا الصدد ، و التي عنيت بمحددات المقام ([1])

([1]) ينظر في النص الأدبي د / سعد مصلوح ٣٧ : ٤٦ ط ط عين للدراسات و البحوث الإنسانية مصر ١٤١٤هـ .

السياق في الدراسات الغربية :

لروا : يبدو أن السياق عنده يعني السياق المقالي و المقامي ، و ذلك في رفضه القول بالمشترك ، فهو يرى : " أننا حينما نقول إن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد ، إنما نكون ضحايا الانخداع إلى حد غير قليل إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليه إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعينه سياق النص (١)

رينيه ويليك و أوستن وارين : وضح هذان الباحثان الأمريكيان أن معنى الشعر يعتمد على السياق فالكلمة لاتحمل معها فقط معناها المعجمي بل هالة من المترادفات و المتجانسات ، و الكلمات لاتكتفي بأن يكون لها معنى فقط ، بل تثير معاني كلمات تتصل فيها بالصوت أو بالمعنى أو بالاشتقاق أو حتى كلمات تعارضها أو تنفيها (٢)

مالينو فسكي : تأكد له أن الكلمات المعزولة عن سياقاتها لاتعدو أن تكون أصواتا مبهمة ، و اقترح ضرورة تحليل أنماط السياقات الكلامية من ناحية ، ومراعاة المواقف الخارجية أو الظروف غير اللغوية المصاحبة للأداء من ناحية أخرى ، و من ثم فإنه معنى الكلمة أو الوحدة اللغوية بأنها الوظيفة التي تؤديها في سياق ما (٣)

---

(١) عن دراسات في فقه اللغة العربية د / صبحي الصالح ٣٠٦ ط دار العلم بيروت ١٩٩٧ م .

(٢) نظرية الأدب لرينيه ويليك و أوستن وارين ١٨١ ترجمة محيي الدين صبح ط المؤسسات للدراسات و النشر بيروت ١٩٨٧ م .

(٣) عن دلالة السياق د/ البركاوي ٤٨ .

فيرث : ذهب إلى أن التنوعات اللغوية (كلمات أو عبارات أو جمل) إنما تؤدي وظيفتها في إطار موقف خـــارجي ، كمـــا أن عناصـــر الوحدة اللغوية لا يعمل أى منها إلا في ضوء علاقته بالعناصر الأخرى ، و المراد بالوحدة اللغوية هنا الجملة ، و ليست الكلمة أو العبارة ، و قـــد أكد فيرث على أهمية مراعاة السياق الخارجي أو المقام ، و بجانب مراعاة السياق الخارجي ، لابد من مراعاة السياق اللغوي ، و يعنى به مجموعـــة الوظائف المستفادة من عناصر أداء المقال ، و أضاف إلى ذلك الـــسياق الثقافي الذي يتضمن قائمة بالفوارق الاجتماعية و السمات الشخـــصية و الثقافية للمتحدث و المتحدث إليه ([1])

دافيد كريستال ، وديرك دافي : ذكرا نموذجا لمحـــددات المقـــام يمكن أن يكون قابلا للتطبيق في مجال تشخيص الأساليب علـــى النحـــو التالي : ــ

أ ــ محددات التفرد : وهو يشمل (اللهجة و العصر).

ب ــ محددات الخطاب : وهو يشمل (واسطة الاتصال سواء أكانـــت كتابة أم كلاما شفهيا ، سواء أكانت واسطة بسيطة أم واسطة مركبـــة ، كما تشمل المشاركة ، وهى إما أن تكون أداء فرديا أو حواريا ، و إمـــا أن تكون مشاركة بسيطة أو مشاركة مركبة) .

جـ ــ محددات المجال : مثل لغة العبادة ــ الإعلان ــ القانون .

([1]) عن دلالة السياق د / البركاوي ٤٨ : ٥٢ .

د ــ محددات الموقف الاجتماعي : و تتصل بالمكانة الاجتماعية النــسبية للمشتركين في عملية الاتصال من حيث الرسمية و التــأدب و القرابــة وعلاقات العمل .

هـــ ــ المحددات الشكلية : و تشكل ما يوجد مــن فــروق في صــيغى الاتصال كالرسائل و بطاقات البريد ، و الملاحظات و البرقيات و التقرير و المقالات العلمية و المتون الدراسية .

و ــ العوارض الشخصية : و تختلف عما يندرج تحت عوامل التفرد من جهة كونها عوارض مؤقتة وطارئة ، و يمكن استخدامها في التلاعــب أو المناورة ، و يتم إقحامها في الموقف لإحداث تقابل لغوي محدد ، ومثالها : أن يلوي أحدهم لسانه بصيغة لغوية يقلد بها الطبقــة الراقيــة أو لكنــة أعجمية ، أما عوامل التفرد فتمتاز بالدوام و الثبات ([1])

([1]) عن د/ سعد مصلوح في النص الأدبي ٣٩ : ٤١ .

و في نهاية المطاف يمكن قول ما يلي : ـــ

أولا : القدماء :

١ ـــ أن القدماء طبقوا مفهوم السياق دون أن يضعوا له ضابطا محددا ، و إنما يمكن تحديد مفهوم السياق عندهم من تطبيقاتهم تلك كما مـــضى بيانه ، وخلاصته أن السياق هو ما يحيط بالأســـلوب مـــن الوحـــدات اللغوية، و الظروف خارجية بتنوعاتها المختلفة .

٢ ـــ أن السياق في تراث الأسلاف يشمل السياق الداخلي (المقـــالي) والسياق الخارجي (سياق الحال).

٣ ـــ أن تراثهم مشحون بتطبيق السياق على أوسع نطاق في الدراسات القرآنية و الفقهية ، و شروح السنة المطهرة .

٤ ـــ أن السياق بشقيه هـــو الحـــاكم في تحديـــد دلالـــة الأســـاليب، و مقاصدها .

٥ ـــ إن إيراد حلقات من قصص النبيين في القرآن الكـــريم في مـــواطن متعددة بأساليب مختلفة ، إنما يكون وفاء بحق السياق .

٦ ـــ أن أسباب النزول في القرآن ، و أسباب الورود في السنة يشكلان جزءا من السياق .

٧ ـــ أنه لا ينظر في البيان النبوي بمعزل عن البيان القرآني ، و لا العكس لأنهما سياق واحد ، حيث إن السنة وحي من الوحي .

٨ ـــ أن الأساليب قد تتفق في صياغتها ، و تختلـــف دلالتـــها ؛ تبعـــا لاختلاف السياق .

٩ ـــ أن (الحال و المقام) في التراث البلاغـــي يرادفـــان الـــسياق في الدراسات الحديثة و الغربية .

١٠ ـــ أن القدماء كانوا أبعد نظرا في تحديد السياق و تطبيقاته،و النظر الكلي للنص في فضاء متسع جدا .

ثانيا : المحدثون :

١ ـــ أن المحدثين كان لهم جهد جيد في وضع الإطار النظـــري لنظريـــة السياق ، و التي كانت كامنة وراء تطبيقات القـــدماء ، حيـــث طبقـــوا مفهومها ، و لم يوردا النظرية القائمة وراء تطبيقاتهم .

٢ ـــ أن تحديد المحدثين و الغربيين لمفهوم السياق و ضوابطه لم يبعد كثيرا عما جاء في كتب القدماء تطبيقا .

٣ـــ أنهم فصلوا القول في أبعـــاد الـــسياق مـــن جوانبـــه الـــسياسية و الاجتماعية و التاريخية كافة ، وهو ما أشار إليه القدماء في وصفهم إياه بالمقام .

الفصل الثاني
الأسلوب

الأسلوب في اللغة :

ذكر ابن منظور أنه يقال : للسطر من النخيل : أسلوب ، و كل طريق ممتد فهو أسلوب ، و الأسلوب : الطريق و الوجه و المذهب ، و يجمع على أساليب ، و الأسلوب : الطريق تأخذ فيه ، و الأسلوب بالضم : الفن ، يقال : أخذ فلان في أساليب من القول ، أى : أفانين منه " ([١]) وذكر الفيروزآبادي شيئا من ذلك ([٢]) وفي الوسيط يقال : سلكت أسلوب فلان في كذا : طريقته ومذهبه ، و طريقة الكاتب في كتابته ([٣]) وواضح أن الأسلوب هنا هو الطريقة في التعبير .

([١]) لسان العرب مادة (س ل ب)

([٢]) القاموس المحيط (س ل ب)

([٣]) المعجم الوسيط (س ل ب)

مفهوم الأسلوب في تراث القدماء :

ربما لا نجد في تراث القدماء مفهوما محددا للأسلوب ، غير أن هذا لاينفي أن لهم جهودا جيدة في هذا الباب .

ابن قتيبة (ت : ٢٧٦ هـ) : يقول ابن قتيبة " و إنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب ، و افتنانها في الأساليب " وواضح من السياق أن المراد بالأسلوب عنده الطريقة التي يترسمها الشاعر أو الناثر في أداء المعنى ، حيث يقول بعد ذلك : " وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال و كثرة الحشد وجلالة المقام " ([1]) وقد بين أن أقسام الشعر أربعة (ضرب منه حسن لفظه ، وجاد معناه ، و ضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى ، و ضرب منه جاد معناه و قصرت ألفاظه عنه ، و ضرب منه تأخر معناه ، و تأخر لفظه) ثم قال : ــ بعد ذلك ــ فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، و عدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر ، و لم يطل فيمل السامعين ، و لم يقطع ، و بالنفوس ظمأ إلى المزيد " ([2]) أى : أن السبب في اختلاف طرق أداء المعنى هو المقامات التي قيلت فيها ، وهو معروف عند العرب ، فخطبة

([1]) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ١٠ ، ١١ تحقيق السيد أحمد صقر ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤ م .

([2]) الشعر و الشعراء ٢٨ لابن قتيبة تحقيق مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ .

النكاح غير خطبة الحرب ، و الغزل غير المديح ، ولكل مقصد أسلوب يلائمه ، وطريق في أداء المعنى يناسبه ، ومراعاة أحوال المخاطبين أمر حتمي لجودة الشعر .

الخطابي (ت : ٣٨٨ هـ) : يقول الخطابي : " وهاهنا وجه آخر يدخل في هذا الباب ، و ليس بمحض المعارضة ، و لكنه نوع من الموازنة بين المعارضة و المقابلة ، وهو أن يجري أحد الشاعرين في أسلوب من أساليب الكلام وواد من أوديته ، فيكون أحدهما أبلغ في وصف ما كان بباله من الآخر في نعت ماهو بإزائه ، وذلك مثل أن تتأمل شعر أبي دؤاد الإيادي و النابغة الجعدي في صفة الخيل ، و شعر الأعشى و الأخطل في نعت الخمر ، و شعر الشماخ في وصف الخمر ، و شعر ذي الرمة في وصف الأطلال و الدمن ونعوت البراري و القفار ، فإن كل واحد منهم وصاف لما يضاف إليه من أنواع الأمور ، فيقال : فلان أشعر في بابه ومذهبه من فلان في طريقته التي يذهبها في شعره ، وذلك بأن تتأمل نمط كلامه في نوع ما يعنى به ويصفه ، وتنظر فيما يقع تحته من النعوت و الأوصاف ، فإذا وجدت أحدهما أشد تقصيا لها ، و أحسن تخلصا إلى دقائق معانيها ، و أكثر إصابة فيها ، حكمت لقوله بالسبق ، و قضيت له بالتبريز على صاحبه ، و لم تبال باختلاف مقاصدهم وتباين الطرق فيها " (١)

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ٦٥ ، ٦٦ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ط دار المعارف ١٩٨٦ م .

الباقلاني (ت : ٤٠٣ هـ) : يقول الباقلاني : " إن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، و له أسلوب يختص به و يتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، و ذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدّل المسجّع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا ، فتطلب فيه الإصابة و الإفادة ، و إفهام المعاني المعترضة على وجه بديع و ترتيب لطيف . . . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق " ([1]) وقد ربط الباقلاني هنا بين الأسلوب و الجنس الأدبي ، و بين أن لكل جنس من الأجناس الأدبية أسلوبا يلائمه.

ابن رشيق (ت : ٤٥٦ هـ) أورد ابن رشيق كلاما للجاحظ ، ثم علق عليه بما يكشف عن مفهوم الأسلوب عنده ، و الظاهر أنه يحصره في الصياغة اللفظية حيث يقول : " قال أبو عثمان الجاحظ : أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا ، و سبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان ، و إذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذ سماعه وخف محتمله ، وقرب فهمه ، وعذب النطق به ، وحلي في فم

([1]) إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني ٣٥ تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف ١٩٦٣ م .

سامعه ، فإذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه ، و ثقل على اللسان النطق به ، ومجته المسامع فلم يستقر فيها منه شئ " ([1])

عبد القاهر الجرجاني (ت : ٤٧١ هـ) الأسلوب عند الإمام هو : الضرب من النظم و الطريقة فيه ، حيث يقول : "واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء و أهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له و غرض أسلوبا ، و الأسلوب هو : الضرب من النظم و الطريقة فيه ، فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب ، فيجئ به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها ، فيقال : قد احتذى على مثاله " ([2])

السكاكي : (ت : ٦٢٦ هـ) يتحدث السكاكي عن أسلوب الالتفات قائلا : " اعلم أن هذا النوع أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص المسند إليه ، و لاهذا القدر ، بل الحكاية و الخطاب و الغيبة ثلاثتها كل واحد منها إلى الآخر ، و يسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني ، و العرب يستكثرون منه ، و يرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان أدخل في القبول عند السامع ، و أحسن تطرية لنشاطه ، و أملأ باستدرار إصغائه ، وهم أحرياء بذلك ، أليس قرى الأضياف سجيتهم ، ونحر العشار للضيف دأبهم وهِجِّيراهم ؟ لامزقت أيدي الأدوار لهم أديما ، و لا أباحت لهم حريما فتراهم يحسنون

([1]) العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده ١٧١ ، ١٧٢ ط أمين هندية ١٩٢٥ م .

([2]) دلائل الإعجاز ٤١٨ تحقيق محمود شاكر ٢٦٨ نشر مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٤ م .

قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ، و لايحـــسنون قرى الأرواح ، فلا يخالفون فيه بين أسلوب و أسلوب و إيراد و إيراد " (١) ونراه قد عد الالتفات أسلوبا ، كما عد إخـــراج الكـــلام لا علـــى مقتضى الظاهر أسلوبا ، كما عد الأسلوب الحكيم أسلوبا حيث قال : " إن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام ، فحرك من نشاط الـــسامع ما سلبه حكم الوقور ، و أبرزه في معرض المسحور " (٢)

حازم القرطاجني (ت : ٦٨٤ هـــ) كتب فصلا مطولا للأسلوب وضع له عنوانا هو : " المنهج الثالث في الإبانة عن الأساليب الشعرية ، و أنحاء الاعتمادات فيها ، و ما يجب أن تعتبر به أحوالها في جميع ذلك من حيـــث تكون ملائمة للنفوس ، أو منافرة لها " وقد تحدث فيـــه عـــن ملاءمـــة الأساليب للأغراض ، و أن الأساليب تختلـــف بـــاختلاف الأغـــراض و أحوال المخاطبين حيث قال : " إن أساليب الشعر تتنوع بحسب مسالك الشعراء في كل طريقة من طرق الشعر ، و بحسب تصعيد النفوس فيهـــا إلى حزونة الخشونة ، أو تصويبها إلى سهولة الرقة أو ســـلوكها مـــذهبا وسطا بين ما لان وما خشن من ذلك ، فإن الكلام منه ما يكون موافقـــا لأغراض النفوس الضعيفة الكثيرة و الإشفاق مما ينوبها أو ينوب غيرهـــا ، ومنه ما يكون موافقا لأغراض النفوس الخشنة القليلة المبالاة بالأحداث .

---

(١) مفتاح العلوم ٧٦ ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) مفتاح العلوم ١٤٠ .

. . " ([1]) ثم قسم الأنحاء التي تأتي عليها الأساليب إلى عشرة أنحاء ، كأن يكون الكلام مبنيا على الرقة المحضة أو على الخشونة المحضة . . . وقد انتهى إلى أن " الأسلوب هيأة تحصل عن التأليفات المعنوية ، و النظم هيأة تحصل عن التأليفات اللفظية " ([2])

العلوي (ت : ٧٤٩ هـ) قال العلوي : " يجب على الناظم و الناثر فيما يقصد من أساليب الكلام مراعاة ما يقتضيه علم النحو : أصوله وفروعه من تعريف المبتدأ أو تقديمه وجوبا ، إذا كان استفهاما أو شرطا وجوازا في غير ذلك ، ومراعاة تنكير الخبر وتقديمه إذا كان المبتدأ نكرة ، و أن يراعى في الشرط و الجزاء كون الجملة الأولى فعلية وجوبا ، و الثانية بالفاء إذا كانت جملة اسمية أو فعلية إنشائية كالأمر و النهي أو خبرية ماضية ، و أن يأتي بالواو في الجملة الاسمية إذا وقعت حالا وتحذف مع المضارع المثبت " ([3]) وواضح هنا أنه يسوي بين الأسلوب و النظم.

و الظاهر أن الأسلوب عند البلاغيين هو النمط من التركيب ، فالوصل أسلوب و الفصل أسلوب ، و القصر أسلوب ، والذكر أسلوب

([1]) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ٣٥٤ ، ٣٥٥ تحقيق محمد بن الحبيب بن الخوجة ط دار الكتب الشرقية ، تونس دون تاريخ .

([2]) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ٣٦٤ .

([3]) الطراز المتضمن لعلوم البلاغة و حقائق الإعجاز للعلوي ٢ / ٢٢٢ ، ٢٢٣ ط المقتطف بمصر ١٩١٤ م .

، و الإيجاز أسلوب و الإطناب أسلوب وهكذا ، و ذلك قولهم : " فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، و مقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، و مقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، و مقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب و المساواة " ([1])

ابن خلدون (ت : ٨٠٨هـ) تناول العلامة ابن خلدون الأسلوب في فصل صناعة الشعر ووجه تعلمه حيث يقول : " ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل الصناعة ـ صناعة الشعر ـ وما يريدون بها في إطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذي يفرغ فيه ، و لا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ، و لا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة و البيان ، و لا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض ، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ، و إنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، و تلك الصور ينزعها الذهن من أعيان التراكيب و أشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب و البيان فيرصّها فيه رصا ، كما يفعله البناء في القالب أو النساج في المنوال ن حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية

([1]) ينظر تلخيص المفتاح ١ / ١٢٦ : ١٢٨ وشروحه الصفحات نفسها .

بمقصود الكلام ، و يقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكـــة اللـــسان العربي فيه ، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه على أنحاء مختلفة " ([١])

السيوطي (ت : ٩١١ هـــ) يبدو أن الأسلوب عنده يعني التركيـــب ، وذلك في قوله : " وحسن التخلص و الاستطراد من أســاليب القـــرآن "([٢])

مفهوم الأسلوب في الدراسات الحديثة و المعاصرة :

الرافعي : يرى أن الأسلوب هو الكلام الفصيح البليغ الجامع لحر اللفظ ونادر المعنى ، و ذلك في قوله " أفصح الكلام و أبلغه و أجمعه لحر اللفظ ونادر المعنى ، هو الجدير بأن يطلق عليه كلمة الأسلوب " ([٣])

أحمد الشايب : ألف كتابا سماه الأسلوب ، وقد أورد فيه عدة تعريفـــات للأسلوب : ـــ

١ ـــ أن الأسلوب : هو فن من الكلام يكون قصصا أو حوارا تشبيها أو مجازا أو حكما أو مثالا ([٤])

٢ ـــ الأسلوب : هو طريقة التفكير و التصوير و التعبير ([٥])

([١]) مقدمة ابن خلدون ٤٧٤ ط دار العودة بيروت .

([٢]) الإتقان في علوم القرآن ١ / ١١٩ .

([٣]) إعجاز القرآن و البلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ٢٧٠ ط المقتطف و المقطم الثالثـــة ١٩٢٨ م .

([٤]) الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب ٤١ ط مكتبة النهضة المصرية الثامنة ١٩٩١ م .

([٥]) السابق ٤٥ .

٣ ــ أن الأسلوب : هو الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام و تأليفه لأداء الأفكار ، و عرض الخيال ، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني ([1]) وهذا التعريف هو الذي ارتضاه الأستاذ الشايب

أحمد حسن الزيات : يرى أن الأسلوب : هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ و تأليف الكلام " ([2])

د / تمام حسان : يبدو أن الأسلوب هو عنده النمط من التركيب ، و ذلك في قوله : " وكان من رأي البلاغيين أن لكل مقام مقالا لأن صورة المقال تختلف في نظر البلاغيين بحسب المقام ، و ما إذا كان يتطلب هذه الكلمة أو تلك ، وهذا الأسلوب أو ذاك من أساليب الحقيقة أو المجاز و الإخبار أو الاستفهام ، وهلم جرا " ([3])

جبور عبد النور : جاء في معجمه أن الأسلوب : هو طريقة يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه و الإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواها ، لا سيما في اختيار المفردات ، و صياغة العبارات ، و التشابيه و الإيقاعات " ([4])

([1]) السابق ٤٦ .

([2]) دفاع عن البلاغة ٧٠ ط عالم الكتب مصر ١٩٦٧ م .

([3]) اللغة العربية معناها و مبناها ٣٣٧ .

([4]) المعجم الأدبي ٢٠ .

د / سعد مصلوح : ذكر تعريفين للأسلوب الأول : أن الأســـلوب هـــو مفارقة أو انحراف عن أنموذج آخر من القول ينظر إليه على أنه معيار ، و بالمقارنة بينهما يقع التمييز بين النص المفارق و النص النمط ، و يـــشترط لجواز المقارنة تماثل المقام بينهما .

الثاني : أن الأسلوب : هو اختيار أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة ([1])

([1]) في النص الأدبي دراسة لغوية و إحصائية ٢٢ ، ٢٣ .

مفهوم الأسلوب في الدراسات الغربية :

بالي : مفهوم الأسلوب عنده يتمثل في مجموعة من عناصر اللغة المؤثرة عاطفيا على المستمع ، أو القارئ ، ومهمة علم الأسلوب لديه هي البحث عن القيمة التأثيرية لعناصر اللغة المنظمة و الفاعلية المتبادلة بين العناصر التعبيرية التي تتلاقى لتشكيل نظام الوسائل اللغوية المعبرة ([١])

سيدلير : " الأسلوب هو طابع العمل اللغوي ، و خاصيته التي يؤديها ، وهو ذو أثر عاطفي محدد يحدث في نص ما بوسائل لغوية ، وعلم الأسلوب يدرس و يحلل ، و ينظم مجموعة الخواص التي يمكن أن تعمل في لغة الأثر الأدبي ، ونوعية تأثيرها ، و العلاقات التي تمارسها التشكيلات الفعالة في العمل الأدبي " ([٢])

بارت : يرى أن الأسلوب : هو ظاهرة ذات طبيعة تشبه طبيعة البذور ، يهدف إلى نقل الحالة أو المزاج ليستزرعها في نفس القارئ ([٣])

جيراو : يرى أن الأسلوب : هو مظهر القول الذي ينجم عن اختيار وسائل التعبير ، هذه الوسائل التي تحددها طبيعة ومقاصد الشخص المتكلم أو الكاتب ([٤])

([١]) عن (علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته) ٧٥ د / صلاح فضل ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م .

([٢]) عن (علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته) ٧٥.

([٣]) عن (علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته) ٨٣

([٤]) عن (علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته) ٩٦

سنك : يرى أن الأسلوب : هو الوجه الــسافر مــن الــروح، و أسلوب الناس شبيه بحياهم ([1])

بوفون : انتهى جورج بوفون في عمله المشهور (مقال في الأسلوب) إلى أن الأسلوب هو : الرجل ، و قد حاول من خلاله ربط قيم الأســلوب الجمالية بخلايا التفكير الحية ، و المتغيرة مــن شــخص إلى شــخص ، لا بقوالب التزيين الجامدة ([2])

الحديث عن تفضيل الأسلوب الحقيقي علــى الأســلوب المجازي ووجهه :

كثر في تراث البلاغيين الحديث عن تفضيل أسلوب على أسلوب ، ومن أوضح ذلك حديثهم عن تفضيل المجاز على الحقيقة ، وكــذلك بعــض القدماء ، و سنورد أقوالهم و تأويلها على النحو التالي .

الرماني (ت : ٣٨٤ هــ) يرى أن كل أسلوب وفى بحق المقام كان أولى من سواه ، و أبر بالمقام من غيره ، و ذلك في قوله : " وكــل اســتعارة حسنة فهي توجب بيانا لاتنوب منابه الحقيقة ، و ذلك أنه لو كان تقــوم مقامه الحقيقة كانت أولى به ، و لم تجز الاستعارة . . . فكل استعارة لابد

---

(١) عن المعجم الأدبي لجبور عبد النور ٢٠ .

(٢) عن (دراسة الأسلوب بين التراث و المعاصرة) د / أحمد درويش ١٢ نشر مكتبة الزهراء دون تاريخ .

لها من حقيقة ، و لا بد من بيان لا يفهم بالحقيقة " ([1]) ثم عـــرض بعـــد ذلك لآيات من أسلوب الاستعارة ، و بين أنها أبلغ من الحقيقة ، ونفهـــم من سياق كلامه أن مقصوده بالأبلغ المبالغة في المعنى ، من ذلك مثلا مـــا قاله عند قوله : ـــ تعالى ـــ (بريح صرصر عاتية) (الحاقة / ٦) حقيقته شديدة ، و العتو أبلغ منه لأن العتو شدة فيهـــا تمـــرد ([2]) وقال مثل هذا القول في الآيات التي أوردها في هذا السياق ، وقد تابعـــه في ذلك ابن سنان الخفاجي (ت : ٤٦٦ هـــ) في سر الفصاحة ([3]).

أبو هلال العسكري (ت : ٣٩٥ هـــ) عرض أبوهلال للاســـتعارة ، و بين فضلها وطاقاتها في التعبير من حيث شرح المعنى، و فضل الإبانة عنه ، أو تأكيده ، و المبالغة فيه ، أو الإشارة إليـــه ، ثم بـــين أن هـــذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة ، و لولا أن الاستعارة المـــصيبة تتضمن ما لاتتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقـــة أولى منـــها استعمالا ، ثم أجرى موازنات بين بعض الآيات القرآنيـــة ، و ذكـــر أن بعضها أبلغ من بعض من حيث قوة المعنى و المبالغة فيه ، فعند التعـــرض لقوله : ـــ تعالى ـــ (و لايظلمون فتيلا) (النساء / ٤٩) وقوله : ـــ تعالى ـــ (وما يملكون من قطمير) (فاطر / ١٣) بين أن هذه الآيـــات أبلغ من غيرها من مثل (و لايظلمون شيئا) (مـــريم / ٤٧) وقولـــه :

([1]) النكت في للرماني ٨٦ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

([2]) السابق ٨٦ .

([3]) ينظر سر اتلفصاحة لابن سنان ١١٨ .

(لايملكون شيئا) (الزمر / ٤٣) ([1]) وخلاصة القول عنده أن منـــاط التفضيل هو ما للاستعارة من الفضائل السالفة الذكر ، و أن مقـــصوده بالأبلغ الأكثر مبالغة .

القاضي عبد الجبار (ت :٤١٥هـــ) قال : ـــ بعدما بين ما تظهر به المزية في النظم ـــ " و لا فصل فيما ذكرناه بين الحقيقة و المجاز ، بل ربما كان المجاز أدخل في الفصاحة " ([2]) أى أن كل أسلوب يأتي مطلبا لسياقه يكون أدخل من غيره في الفصاحة .

ابن جني (ت :٣٩٢هـــ) يبين ابن جني أن للمجاز أوصافا لابـــد مـــن توافرها ، ليعدل عن الحقيقة إليه ، و إلا كان اســـتعمال الحقيقـــة أولى ، فالمفاضلة عنده ليست على إطلاقها ، و إنما هى مرهنة بطاقـــات المجـــاز وثرائه ، يقول ابن جني : " و إنما يقع المجاز ، و يعدل إليه عـــن الحقيقـــة لمعان ثلاثة ، وهي الاتساع والتوكيد و التشبيه ، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة ألبتة " ([3]) كما يرى ابن جني أن أكثر اللغـــة مجـــاز ، لا حقيقة على العكس من ابن فارس ، الذي يرى أن الحقيقة ، هـــي أكثـــر

([1]) ينظر الصناعتين ٢٩٥ : ٢٩٨ .

([2]) المغني في أبواب التوحيد و العدل ـــ إعجاز القرآن ١٦ / ٢٠٠ تحقيق محمد أمين الخولي ط وزارة الثقافة و الإرشاد القومي بمصر ١٩٦٥ م .

([3]) الخصائص لابن جني ٢ / ٤٤٤ .

الكلام ، و أكثر آى القرآن وشعر العرب على هذا (١) وقد وافق ابـــن جني ابن القيم (ت :٧٥١هـــ) (٢)

ابن رشيق (ت : ٤٥٦ هـــ) يرى أن " المجاز في كثير من الكلام أبلـــغ من الحقيقة ، و أحسن موقعا في القلوب و الأسماع ، بـــل إن الاســـتعارة عنده أفضل المجاز ، و أول أبواب البديع ، و ليس في حلى الشعر أعجب منها ، وهي من محاسن الكلام ، إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها " (٣) وعبارته الأخيرة تلك تدل على أن التفضيل ليس على إطلاقـــه ، و إنمـــا فضله مرتهن بإصابة الموقع ، و الوفاء بحق بالمقام .

الإمام عبد القاهر (ت : ٤٧١ هـــ) لخص الإمام تـــراث الـــسابقين في القضية حيث قال : " أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفـــصاح و التعريض أوقع من التصريح ، و أن للاستعارة مزية و فضلا ، و أن المجاز أبلغ من الحقيقة " (٤) ثم بين الإمام عبد القاهر أن هذا ليس على إطلاقه ، و أن ليس المعنى إذا قلنا : " إن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته ، فجعلته أبلـــغ و آكد و أشد . . . وكذلك ليست المزية التي تراها لقولك : رأيت أســـدا على قولك : رأيت رجلا لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته أنك قد

(١) الصاحبي لابن فارس ٢١٥ .

(٢) الفوائد المنسوب لابن القيم ١٠ ، وقد حققه بعض أهل العلم وصحح نسبته إلى ابن النقيب وعنوانه الصحيح مقدمة في التفسير لابن النقيب .

(٣) العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده لابن رشيق ١ / ٢٦٦ : ٢٦٨ .

(٤) دلائل الإعجاز ٥٥ تحقيق محمد رشيد رضا ط دارالمعرفة ١٤٠٢ هـــ .

أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسد ، بل أنك أفدت تأكيدا وتـــشديدا وقوة في إثباتك له هذه المساواة ، و في تقريك لها ، فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى و حقيقته ، بل في إيجابه و الحكم به " ([1]) وقد بين في موطن آخر أن الحقيقة و المجاز أمرهما يرجع إلى المعنى لا إلى اللفظ ([2])

الغزالي (ت : ٥٠٥هـ) عد الغزالي ــ رحمه الله في المنخول اســتخدام المجاز في مواطن من المقامات غير لائق حيث قال : " كلام رسول الله ــ صلى الله عليه و سلم ــ في الأحكام لا يحمل على الاستعارة مــاأمكن ، فإنها لا تليق إلا بواعظ أو خطيب أو شاعر ينتحي الــسجع لإيقاعــه في القلوب ، فإن الشارع إذا بين حكما لمعجوز مثلا ، فيبعد منه التجــوز ، وهو تشدق ، و قد نهى الرسول ــ صلى الله عليه و سلم ــ عنه ، نعم لايبعد في الاستعارة إذا ذكر الثواب و العقاب ووصف الجنــة و النــار ليعظم وقعه في الصدر " ([3]) وهو كلام جيد حيث عقد فيه بين الأسلوب و الموضوع الذي يساق له ، فالحقيقة لها موضوعاتها الــتي تليــق بهــا كالأحكام ، و للمجاز موضوعاته التي يليق بها كالترغيب و الترهيــب ، وكل بليغ في موطنه .

([1]) السابق ٥٦ ، ٥٧ .

([2]) السابق ٢٨١ .

([3]) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ٢ / ١٨٩ تحقيق د / عبــد الــستار غــدة ط دار الصحوة ١٤١٣ هـ .

وقد ذكر الأصوليون أسبابا للعدول عن الحقيقة إلى المجاز ، منها : التعظيم ، و الفرار من التحقير الذي يترتب على ذكر الحقيقة ، و المبالغة في بيان العبارة ، وتفهيم المعقول في صورة المحسوس لتلطيف الكلام و زيادة الإيضاح ، و زيادة بيان حال المذكور ، ومنها تكثير الفصاحة ، وقد ارتضوا كلام الإمام عبد القاهر في بيان الوجه في أبلغية المجاز على الحقيقة ، و أن ذلك ليس مرادا به زيادة المعنى في نفسه ، و إنما المراد تأكيد المعنى ، قال الزركشي (ت : ٦٢٦هـ) " واعلم أن كلام الأصوليين في الترجيح بين الاشتراك و المجاز يقتضي أن البلاغة تارة تكون في الحقيقة ، و تارة تكون في المجاز ، وهو الحق ، فلا ينبغي إطلاق أن الحقيقة يكون لها من البلاغة ما ليس في المجاز و بالعكس ، ويكون مراد من أطلق أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، أن مجاز اللفظ الواحد أبلغ من حقيقة ذلك اللفظ ، و أما مجاز لفظ و حقيقة لفظ آخر فلا ، و ليس بينهما انتساب ، بل كل واحد في محله له حكم فتفطن له ، و قال أبو زكريا التبريزي في شرح الحماسة : أكثر كلامهم الاستعارات جيدها أحسن من الحقيقة ، وهو مقدم عليها في الاستحسان ، فأما في الأحكام ، فتقدم على المجاز " [1]

السكاكي (ت : ٦٢٦ هـ) ذكر السكاكي " أن أرباب البلاغة و أصحاب الصياغة للمعاني مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، و أن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه ، و أن الكناية أوقع من الإفصاح

(١) البرهان للزركشي ٢ / ١٩٠ / ١٩١ .

بالذكر ، و السبب في أن المجاز أبلغ من الحقيقة هو ما عرفت من أن مبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم " ([1]) أى : أن الأبلغية لا ترجع إلى المعنى في ذاته ، و إنما ترجع إلى إثباته ، لأن إيراد المعنى في صورة المجاز بمترلة مدعى الشئ ببينة ، و ذهب إلى ذلك أيضا ابن الأثير (ت : ٥٨٧ هـ) في المثل السائر ([2]) و الفخر الرازي (ت : ٦٠٦ هـ) في نهاية الإيجاز ([3]) وبدر الدين بن مالك (ت : ٦٨٦ هـ) في المصباح ([4])ومحمد بن علي الجرجاني (ت : ٧٢٩ هـ) في الإشارات و التنبيهات ([5]) والخطيب القزويني (ت : ٧٣٩ هـ) في التلخيص ([6]) وسعد الدين التفتازاني (ت : ٧٩١ هـ) في المختصر و المطول ([7]) و المغربي (ت : ١١١٠ هـ) في مواهب الفتاح ([8])والدمنهوري (ت : ١١٩٢ هـ) في تقريره على متن الأخضري ([9]) و المنياوي (ت : ١٢٩٠هـ) في حاشيته على الدمنهوري ، وقد بين فيها أن قول الدمنهوري أبلغ : أى : أوكد في الإثبات ، و أنسب لمقام بيان المعنى ،

([1]) مفتاح العلوم ٤١٢ ، ٤١٣ .
([2]) المثل السائر ١ / ٨٨ : ٨٩ .
([3]) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ١٩٢ .
([4]) ينظر المصباح لبدر الدين بن مالك ١٥٦.
([5]) الإشارات و التنبيهات لمحمد بن علي الجرجاني ٢٤٩ .
([6]) تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ٣١٤ .
([7]) مختصر السعد على التلخيص ٣١٤ ، و المطول ٤١٤ : ٤١٦ .
([8]) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ٤ / ٢٧٥ : ٢٧٧ .
([9]) تقرير الدمنهوري على متن الأخضري ١٦٣ .

كما أشار إلى جواز كون أبلغ من المبالغة ومن البلاغة ، وفي الصبان على الأطول أنه من المبالغة لاغير ([1]) ، كماذهب إلى ذلك أيضا صاحب أنوار الربيع ([2]) وصاحب حسن الصنيع (ت : ١٣١٠هـ) ([3])

وقد أرجع البحراني (ت : ٦٧٩ هـ) الداعي إلى التكلم بالمجاز إلى أمرين ، إما اللفظ ، و إما المعنى ، أما اللفظ فقد يعدل عن الحقيقة إلى المجاز فلثقل أو تنافر ، و إما أن يكون المجاز صالحا للشعر أو للسجع ، و أصناف البديع دون الحقيقة ، أو لتحقير يكون فيها ، أو لزيادة بيان ، أو تقوية لحال الذكر ، أو لتلطيف الكلام " ([4])

ابن حجة الجموي (ت : ٧٣٧ هـ) يرى أنه " لابد أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها ، لأن الحقيقة لو قامت مقامها لكانت أولى بها ، و لايخفى على أهل الذوق أن قوله : ـــ تعالى ــ (واشتعل الرأس شيبا) (مريم / ٤) أبلغ من كثر شيب الرأس ، وهو حقيقته " ([5]) وواضح من النص أنه يريد بالأبلغية المبالغة في المعنى.

([1]) حاشية المنياوي على تقرير الدمنهوري ١٦٢ .

([2]) أنوار الربيع ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

([3]) حسن الصنيع في المعاني و البيان و البديع ١٦٩ .

([4]) ينظر مقدمة في شرح نهج البلاغة للبحراني ٩٩ .

([5]) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ١ / ١٠٩ ، ١١٠ تحقيق عصام شعيتو بيروت ١٩٩١ م.

وقد فضل العلوي (ت : ٧٤٩ هـ) المجاز على الحقيقة و الكناية على التصريح أيضا ، و أرجع ذلك لما في المجاز من المبالغة ([1])

وقد شرط صاحب المعيار في نقد الأشعار العدول عن الحقيقة إلى المجاز بترتب فائدة على ذلك ، و إلا فلا معنى لاستعماله حيث يمكن استعمال الحقيقة ([2]) و إليه ذهب الطوفي (ت : ٧١٦ هـ) في الإكسير في علم التفسير ([3])

ويفسر ابن السبكي (ت : ٧٧٣ هـ) قول البلاغيين في الإطباق على تفضيل المجاز على الحقيقة بأن المراد بالأبلغ المعنى اللغوي كقولنا : فعيل بمعنى أفعل ، و ليس من البلاغة المصطلح عليها في هذا العلم لأمرين أحدهما : أن تلك لا تكون في المفرد ، و لاشك أن المجاز و الكناية يكونان مفردين غالبا ، نعم ماذهب إليه عبد القاهر من أن الأبلغية في الإثبات يمشي معه في تسمية ذلك بلاغة بالاصطلاح الثاني . الثاني : أن أبلغ أفعل تفضيل ، فإذا حملت على المعنى اللغوي كان على بابه من التفضيل ، لأن الحقيقة بالغة المقصود بكل حال ، فالمجاز أبلغ منها ، فإذا حملناه على الاصطلاحي كان من بلغ بالضم ، وهو دليل على حصول

([1]) الطراز ٢ / ٨ : ٩ .

([2]) المعيار في نقد الأشعار ٧١ .

([3]) الإكسير في علم التفسير للطوفي ٦٦ .

البلاغة في الحقيقة ، و ليس كذلك لأن الحقيقة المجردة لا بلاغة فيها ، فلا يكون من بلغ بالضم بل من بلغ بالفتح " ([1])

العصام (ت : ٩٥١ هـ) علق العصام على قول الخطيب " أطبق البلغاء على أن المجاز و الكناية أبلغ " بأن المراد بأبلغ ، أى : مبالغ فيه ، فالمعنى أن المجاز و الكناية مما بولغ فيهما مبالغة أكثر حيث بولغ في تقرير معنييهما و تحقيقهما . . . و إنما لم يجعلوا الأبلغ من البلاغة، فيكون المعنى أن كلاما فيه كناية ومجاز أبلغ من كلام فيه الحقيقة الصرفة، و يكون وجه الأبلغية كونه أكثر مبالغة ، لأن كثرة المبالغة لا توجب البلاغة مطلقا في مقام يستدعي المبالغة ، فرب حقيقة أبلغ من المجاز لوقوعها في مقام لا يسع المبالغة " ([2]) و الذي أطمئن إليه أن ما فسره العصام هو مراد أكثر البلاغيين بالأبلغية ، وكما هو بين ، جعل العصام المقام أساسا في اصطفاء الأساليب ، و أن الحقيقة تحسن إذا كانت مقتضى مقام ، و كذلك المجاز يحسن إذا كان مقتضى مقام ، و لكن حين يصار إلى الأساليب دون النظر إلى سياقاتها ، فالمجاز أبلغ لما فيه من تأكيد المعنى و المبالغة فيه .

السيوطي (ت : ٩١١ هـ) يرى أن الاستعارة أعلى مراتب الفصاحة ، وكذا الكناية أبلغ من التصريح ، و الاستعارة أبلغ من الكناية . . . و أبلغ أنواع الاستعارة التمثيلية . . . و يليها المكنية . . . و

([1]) ينظر عروس الأفراح ٢ / ٢٨٠ ، ٢٨١ .

([2]) الأطول ٢ / ١٧٨ .

الترشيحية أبلغ من المجردة و المطلقة و التخييلية أبلغ مـــن التحقيقيـــة ، و المراد بالأبلغية إفادة زيادة التأكيد و المبالغة في كمـــال التـــشبيه " ([١]) وواضح أن السيوطي يتحدث عن الأساليب بمعزل عن سياقاتها ، لما بيناه سلفا من عنايته بالسياق في فقه مرامي الأسلوب ، أى أنه كلام نظـــري، و ليس تطبيقيا ، لأنه في الميدان التطبيقي يربط بين الأسلوب و السياق .

أما محمد بن الحسين المفتي (ت : ١٠٥٩ هـــ) فقد قرر أن القول بـــأن المجاز أبلغ من الحقيقة يعني أنه أكثر مبالغة ، و أن هذا لايقتضي استعمال المجاز و الكناية مكان الحقيقة و التصريح في كـــل مكـــان ، لأن بعـــض المقامات يقتضي أن يكون استعمال المجاز و الكنايـــة مكـــان الحقيقـــة و التصريح في كل مكان ، لأن بعض المقامات يقتضي أن يكون اســـتعمال الحقيقة و التصريح فيها مستدعيا لمزيد من البيان و التصريح، وقد بين أن سر الأبلغية أيضا يرجع إلى طريقة إثبات المعنى لا زيادة في المعنى نفـــسه" ([٢])

وقد أورد بعض المحدثين هذه القضية ، و قرروا أفضلية المجاز على الحقيقة و الكناية و التصريح لما في المجاز من المبالغة، و لما في الكناية مـــن إثبـــات المعنى ، و الذي علل ذلك منهم نقل أقوال القدماء ([٣]) بل إن بعـــضهم

([١]) الإتقان في علوم القرآن ٢ / ٦٠ ، وشرح عقود الجمان ١٠٤ .

([٢]) خلاصة المعاني لمحمد بن الحسين المفتي ٤٠١ : ٤٠٣ .

([٣]) البيان بين عبد القاهر و السكاكي د / على البدري ٢٤٧ : ٢٤٨ ، أصول البيـــان العـــربي ٣٦ ، و فنون بلاغية د / احمد مطلوب و اللغة الشاعرة للعقاد ٤٠ ، و مستتبعات التراكيب بين

رأى أن التفاوت أمر فطري لا يماري فيه إنسان (١) و رأى د / عبد الفتاح لاشين أن مقامات الحديث مختلفة ، و الوسائل متباينة ؛ لذا نرى المجاز إلى جنب الحقيقة في الذكر الحكيم (٢) ويقول : د / محمد على الخفاجي : " و إذا سلكنا منهج الباحث اللغوي فإننا لا نفضل أحدهما على الآخر ، فلا نقول : إن المجاز أجمل من الحقيقة لأن الحكم بالجمال و القبح من مجالات النقد " (٣)

خلاصة أقوال السلف :

يمكن تلخيص القول في أمر الحقيقة و المجاز بعد استقراء أقوال السلف فيما عرضناه فيما يلي : ــ

١ ــ أن الحقيقة هى الأصل في التعبير ، و لا يصار إلى المجاز إلا إذا كانت الحقيقة لاتفى بالمقصود و الغرض .

٢ ــ أن المعول عليه في اصطفاء الأساليب هو المقام و الغرض ، و ليس للأساليب حسن في ذاتها ، بل يمكن أن تكون الحقيقة أبلغ من المجاز في مواطن كالحديث عن الحدود مثلا في القرآن الكريم ، فالحقيقة في مثل

البلاغة القديمة و النقد الحديث د / عبد الغني بركة ١٣١ ، و القرآن و الصورة البيانية د / عبد القادر حسين ١٣٦ : ١٣٨

(١) البلاغة التطبيقية د / أحمد موسى ٢٧٣ .

(٢) البيان في ضوء أساليب القرآن د / عبد الفتاح لا شين ٢٨٢ : ٢٨٤ .

(٣) علم الفصاحة العربية مقدمة في النظرية و التطبيق د / محمد على رزق الخفاجي ٣٢٧ ط دار المعارف ١٩٨٢ م .

هذا الموطن هي الأبلغ ، و المجاز لا يلائمها ، فإذا ورد كان عاريـــا مـــن البلاغة .

٤ ـــ أن الأبلغية تعني المبالغة وقوة المعنى ، كما ذهب إليه كثير منـــهم ، و أنه يؤتى بما يكون أكثر مبالغة من الأساليب حين يقتضي المقام ذلك .

٥ ـــ أنه ليس بوسعنا أن نفهم كلمة البلاغيين في أن المجـــاز أبلـــغ مـــن الحقيقة بمعزل عن سياقها الكلي ، فلو أن كلامهم يعني التفضيل المطلـــق لوجب أن يقدموا الحديث في مباحث المجاز على الحـــديث في مباحـــث الحقيقة ، و الواقع أنهم يقدمون الحديث في مباحث علم المعـــاني علـــى الحديث في مباحث البيان .

٦ ـــ أن اتفاق البلاغيين على أن البلاغة هى مطابقة الكـــلام مقتـــضى الحال مع فصاحته تكـــشف عـــن أن البلاغـــة في مطابقـــة الأســـاليب مقاماتهاوأغراضها ، و لاتوصف الأساليب في ذاتهـــا بالبلاغـــة ، و إنمـــا البلاغة قائمة على المطابقة بين المقام و المقتضى ، و أن المقام هـــو الـــذي يستدعي الأساليب اللائقةبه ؛ لذلك كثرت تأويلاتهم لمقولة أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وكأنه تأكيد على مرمى هذه المقولة و بيان لوجهها ، و لـــو لم يكن الأمر كذلك لتناقلها الكل دون تعليق أو توجيه ، و إنمـــا تكثـــر تأويلات ما يمكن أن يفهم على غير وجهه ، ثم إن علماءنا أعقل مـــن أن يقولوا مقولة تطعن في أكثر أساليب القرآن الكريم لأن أكثرها حقيقة لا مجاز ، وقد كانت دراساتهم خدمة للذكر الحكيم على وجه التقـــرب إلى الله ـــ سبحانه ـــ في الغالب .

البليغ و الأبلغ و إشكالية القول به في القرآن الكريم :

السؤال الذي يلح علينا هنا هو : هل في القرآن الكريم بليغ و أبلغ في نظمه و أسلوبه ؟ وقد كثرت في أقوال الأئمة فمن قائل بأن في القرآن بليغا و أبلغ ، ومن منكر له ، و لكل حجته .

النافون للتفاوت : منهم أبو بكر الباقلاني (ت : ٤٠٣هـ) حيث ذكر أن القرآن في عجيب نظمه و بديع تأليفه لا يتفاوت و لا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج . . . إلى آخره ، و نجد كلام البليغ الكامل و الشاعر المفلق و الخطيب المصقع تختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، و لذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب ، و النابغة إذا رهب، و بزهير إذا رغب ، و مثل ذلك يختلف في الخطب و الرسائل و سائر أجناس الكلام ، و الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزهد قصر ، و الأديب إذا تكلم في بيان الأحكام ، و ذكر الحلال و الحرام ، لم يكن كلامه على حسب كلامه في غيره ، و نظم القرآن لا يتفاوت في شئ ، و لا يتباين في أمر ، و لا يختلف في حال بل له المثل الأعلى و الفضل الأسنى " ([1]) أي : أن نفوس البشر تتفاوت رضا و سخطا ، و حبا و كرها ، و قوة و ضعفا ؛ لذا يبرع البلغاء في الكشف عما يحبون ، و يقصرون فيما سواه ؛ تبعا لأهوائهم وحوائجهم ، و ذلك كله على عكس الذات العلية ، و

([1]) إعجاز القرآن ١ / ٥٣ : ٥٤ ، ٢ / ٧٥ بتصرف بهامش الإتقان ط الحلبي القاهرة ١٣٧٠هـ .

يترتب على كلامه ـــ رحمه الله ـــ أن كل أساليب الذكر الحكيم من مجاز و حقيقة ، وغير ذلك على حد سواء في البلاغة ، و أن الحذق في ذلـــك مرده إلى الملاءمة بين المقام و المقتضى.

و الإمام الغزالي (ت :٥٠٥هـــ) سئل الغزالي عن معنى قوله تعـــالى :(أفلا يتدبرون القرآن لو كان القرآن و لوكان من عند الله غير لوجـــدوا فيه اختلافا كثيرا . . .) (النـــساء / ٨٢) فأجـــاب بمـــا صـــورته : الاختلاف لفظ مشترك بين معان ، و ليس المراد نفي اختلاف الناس فيه ، بل نفي الاختلاف عن ذات القرآن ، يقال : هذا كلام مختلـــف ، أى : لايشبه أوله آخره في الفصاحة ، إذ هو مختلف ، أى : بعـــضه يـــدعو إلى الدين ، و بعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم، فبعضه على وزن الشعر و بعضه منزحف ، و بعضه على أسلوب مخصوص في الجزالـــة ، و بعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله منزه عن هذه الاختلافات ، فإنـــه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره، وعلى مرتبة واحـــدة في غاية الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث و السمين ، ومـــسوق لمعـــنى واحد ، وهو دعوة الخلق إلى الله ـــ تعالى ـــ وصرفهم عـــن الـــدنيا إلى الدين ، وكلام الآدميين يتطرق إليه هذه الاختلافات ، و لقد كان رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ بشرا تختلف أحواله ، فلو كـــان هـــذا كلامه ، أو كلام غيره من البشر لوجد فيه اختلاف كثير ، فأما اختلاف الناس فهو تباين في آراء الناس لا في نفس القرآن ، و كيف يكون هـــذا المراد ، و قد قال : ـــ تعالى ـــ (يضل به كثيرا و يهدي به كثيرا . . .)

(البقرة / ٢٦) فقد ذكر في القرآن أنه في نفسه غير مختلف ، وهو مع هذا سبب لاختلاف الخلق في الضلال و الهدى " ([1])

و كلامه ـــ رحمه الله ـــ مبني على أن نفس الله ـــ تعالى ـــ تخالف الحوادث ، وعليه فالبيان الصادر عنه ـــ سبحانه ـــ منزه عن الاختلاف ، كما أن أهم ما يميز كلام البشر هو الاختلاف ، حتى لو كانت هذه النفس نفس رسول مصطفى ، ومعروف أن النبي ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ يغضب و يهدأ ، و يحب و يكره ، و طبعي أن يختلف بيانه حال الغضب عن بيانه حال الهدوء ، و بيانه حال الرضا لابد أن يختلف عن بيانه حال السخط ، وهكذا ، كما أنه من المعروف أنه ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ كان يغضب حتى يحمار وجهه ، فبيانه الشريف فيه اختلاف في مستوى فصاحته ، وهو مع كل ذلك من بيان البشر في الذروة ، إذ هو القائل : " أوتيت جوامع الكلم " كما أن الغزالي ـــ رحمه الله ـــ عد كون البيان القرآن على حد واحد في الفصاحة دليلا على كونه من عند الله .

آراء المفسرين :

اتسع قول السادة المفسرين حول بيان معنى الاختلاف في قوله : ـــ تعالى ـــ (أفلا يتدبرون القرآن و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا

([1]) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢ / ٤٦ : ٤٨ ط دارالمعرفة للطباعة و النشر بيروت ١٩٧٣م .

كثيرا) (النساء / ٨٢) و سنصطفي بعض أقوالهم ، لأن استقراء كلامهم أمر يطول دون داع في مقامنا هذا .

يرى الزمخشري (ت :٥٣٨هـ) و تابعه الشهاب الخفاجي (ت :١٠٦٩هـ) و الآلوسي (ت :١٢٧٠هـ) أن المراد " أن يكون بعض إخباراته الغيبية كالإخبار عما يسره المنافقون غير مطابق للواقع ، و نقل القول بأن المراد : لكان الكثير منه مختلفا متناقضا ، قد تفاوت نظمه و بلاغته فكان بعضه بالغا حد الإعجاز ، و بعضه قاصرا عنه يمكن معارضته . . . وهو مبني على كون وجه الإعجاز عند علماء العربية كون القرآن في المرتبة الأعلى من البلاغة " ([1])

و تأوله ابن عطية (ت :٥٤٦هـ) بأن المعنى أنه " لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور ، و ظهر فيه التناقض و التنافي الذي لا يمكن جمعه ، إذ ذلك موجود في كلام البشر ، و القرآن منزه عنه ، إذ هو كلام المحيط بكل شئ علما " ([2])

ذكر الفخر الرازي (ت :٦٠٦هـ) رحمه الله ـ عدة تأويلات منها ما نسبه إلى أبي مسلم الأصفهاني ، وهو " أن المراد منه الاختلاف في رتبة الفصاحة ، حتى لا يكون في جملته ما يعد في الكلام الركيك ، بل بقيت الفصاحة فيه من أوله إلى آخره على نهج واحد، ومن المعلوم أن الإنسان

([1]) الكشاف ١ / و حاشية الشهاب الخفاجي ٣ / ١٦٠ ط دار صادر بيروت دون تاريخ ، و روح المعاني للآلوسي ٣ / ٨٩ ، ٩٠ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هـ .

([2]) المحرر الوجيز ٤ / ١٨٧ تحقيق المجلس العلمي بفارس ١٣٩٧ هـ .

،و إن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة ، فإذا كتب كتابــا طــويلا مشتملا على المعاني الكبيرة ، فلا بد و أن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قويا متينا ، و بعضه سخيفا نازلا، و لما لم يكــن القــرآن كذلك علمنا أنه المعجز من عند الله ــ تعالى ــ و ضرب القاضـــي لهذا مثلا ، فقال : إن الواحد منا لا يمكنه أن يكتب الطــوامير الطويلــة بحيث لا يقع في شئ من تلك الحروف خلل و نقصان، حتى لــو رأينــا الطوامير الطويلة مصونة عن مثل هذا الخلل و النقصان، لكــان ذلــك معدودا في الإعجاز ، فكذا ههنا ، و قد ذكر أقوالا أخرى تفضي إلى أن الاختلاف معناه التناقض و ذكر غير هذا ([1])

و تأوله القرطبي (ت :٦٧١هــ) " بأن المراد اخــتلاف التنــاقض و التفاوت ، و قيل : المعنى لو كان ما تخبرون به من غير الله لاختلــف ، و قيل : إنه ليس من متكلم يتكلم كلاما كثيرا إلا وجد في كلامه اختلاف كثير ، إما في الوصف واللفظ ، و إما في جودة المعنى، و إما في التناقض ، و إما في الكذب ، فأنزل الله ــ عز وجل ــ القرآن، و أمرهم بتدبره ، لأنهم لايجدون فيه اختلافا في وصف ، و لا ردا له في معنى ، و لا تناقضا و لا كذبا " ([2])

([1]) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١٠ / ١٥١ : ١٥٢ ط دار إحياء التــراث العــربي بــيروت ١٤١٥ هــ .

([2]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥ / ١٨٧ .

و تأوله البيضاوي (ت :٦٨٥هـ) بأنه خلا من " تناقض المعنى ، و تفاوت النظم ، و كان بعضه فصيحا ، و بعضه ركيكا ، و بعضه يصعب معارضته ، و بعضه يسهل ، و مطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض " [1]

و تأول البقاعي (ت :٨٨٥هـ) الاختلاف بالتناقض في المعنى ، و التخلف عن الصدق في الإخبار بالمغيبات أو بعضها ، و في النظم بالتفاوت في الإعجاز [2] أى أن القرآن الكريم منزه عن الاختلاف في المعنى ، و أنه في النظم على حد واحد .

و تأوله البغدادي (ت :١٠٩٣هـ) بقوله : " لوجدوا فيه اختلافا كثيرا من حيث البلاغة و الفصاحة ، و المعنى لو كان من عند مخلوق لكان على قياس الكلام المخلوق بعضه فصيح بليغ حسن،و بعضه مردود ركيك فاسد ، فلما كان القرآن جميعه على منهاج واحد في الفصاحة و البلاغة ثبت أنه من عند الله " [3]

وقال المراغي : ـ بعدما أورد أشياء كثيرة " هذا إلى أنه نزل منجما بحسب الوقائع و الأحوال ، و كان النبي ـ صلى الله عليه و سلم ـ عند نزول الآية ، أو الآيات يأمر بأن توضع في محلها من سورة كذا، وهو

([1]) أنوار التنزيل ٢ / ٥٣ بهامش حاشية زادة ط دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .

([2]) نظم الدرر ٢ / ٢٨٧ .

([3]) لباب التأاويل في معاني التزيل لعلاء الدين البغدادي ٢ / ١١٨ ، ١١٩ تحقيق عبد السلام شاهين ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هـ .

يحفظه حفظا ، و قد جرت العادة بأن من يــأتي بكــلام مــن عنــده في مناسبات مختلفة لا يتذكر جميع ما سبق لــه في الــسنين الطــوال ، و لا يستحضره حتى يجعل الآخر موافقا للأول مع أن بعض الآيات كان يترل في أيام المحن و الكروب ، و بعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام " (١)

و قال الطاهر بن عاشور : " و الاختلاف يظهر أنه أريد بــه اخــتلاف بعضه مع بعض ، أى : اضطرابه ، و يحتمل أنه اختلافه مع أحوالهم ، أى : لوجدوا فيه اختلافا بين ما يذكره مــن أحــوالهم ، و بــين الواقــع ، فليكتفوا بذلك في العلم بأنه من عند الله " (٢)

و الحق أنني أفهم الاختلاف على أنه التفاوت في البلاغة ، أما ماقيل مــن أن الاختلاف معناه التناقض ، فلا أطمئن إليه ؛ لأن نفي التناقض شــرط لصحة الكلام ، و ليس شرطا لحسنه ، و كذلك القول بان الاخــتلاف معناه التناقض مع الواقع و الأحوال و الغيبيات ، كما أن كــل القــرآن ليس حديثا عن المنافقين و أحوالهم و لا عن الغيبيــات، و يبقــى فهــم الاختلاف بمعنى التفاوت في البلاغة هو الأعلى ، وإذا كــان الله ــ عــز وجل ــ قد نفى التفاوت عن صنعته (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) (الملك / ٣) فكيف بكلامه ــ سبحانه ــ الذي هو صفة من صفاته .

---

(١) تفسير المراغي ١ / ٢٦٨ : ٢٦٩ ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨ هـ .

(٢) التحرير و التنوير ٥ / ١٣٨ .

وشئ آخر هو أن الله حينما تحدى العرب بالقرآن أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يحدد نوعا من السور ، و لانوعا من الآيات ، و إنما تحداهم بكل القرآن ، وهذا مما يجزم بما أطمئن إليه مـــن أن الاخـــتلاف معناه التفاوت في حد البلاغة ، ونحن إذ نرى أن المجاز و الحقيقة و الأساليب العربية كافة توجد في الذكر الحكيم ، فليس بوسعنا أن نقول : إن في القرآن أسلوبا أبلغ من أسلوب ، و إنما كل الأساليب في البلاغـــة على حد واحد لأن " القول البليغ في الأصل : هو الذي يطابق مدلولـــه المقصود به " ([1]) فتفاوت الأساليب في حد البلاغة وقف علـــى مطابقـــة المقام و المقصود ومواءمة السياق .

و حين نتأمل أساليب الذكر الحكيم نرى أن أساليب المجاز أليق بسياقات الترغيب و الترهيب و القصص القرآني ، وما شاكل ذلك من السياقات من ذلك مثلا قوله : ــ تعالى (ونزعنا مافي صدورهم من غل تجري مـــن تحتهم الأنهار . . .) (الأعراف / ٤٣) وقوله : (واخفض لهما جنـــاح الذل من الرحمة . . .) (الإسراء / ٢٤) ، و في القـــصص القـــرآني (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض . . .) (الكهف / ٧٧) و في سياق الترهيب (و إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه) (الكهف / ٢٩) و (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (الدخان / ٤٩) وهو حـــشد هائل من الآيات في الذكر الحكيم نرى فيه أسلوب المجاز أليق بالسياق لما

([1]) أنوار التنزيل للبيضاوي ٢ / ٤٧ .

فيه من الطاقات الثرة في الحمل على ارتقاء صالح الأعمال، والانتهاء عن سيئها ، ولا يليق الأسلوب الحقيقي بمثل هذه السياقات .

كما نرى أن أساليب الحقيقة لها سياقاتها ، من مثل الحديث الوارد عن الحدود و المواريث ، وما أشبه ذلك من السياقات التي تحتاج إلى أساليب محددة وواضحة غير حمالة ، تخلو من الخيال حيث إن السياق لا يحتمل من ذلك مثلا قوله : ــ تعالى ــ (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر و العبدبالعبد و الأنثى بالأنثى . .) (البقرة / ١٧٨) لا نجد هنا مجازا إلا في قوله (القتلى) فهى مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون ، وهو أليق هنا بالسياق ؛ لأنه يفضي إلى عدم اللجوء إلى القصاص إلا بعد تحقق القتل ، و أنه لا ينبغي المسارعة في الأخذ بالقصاص لمجرد كون المعتدى عليه في حال يفضي إلى القتل، و بعد ذلك لا نجد أثرا للمجاز ، فكلها بعد ذلك أساليب حقيقية ؛ لأن أسلوب المجاز الحمال للوجه المتعددة لا يليق بسياق تحديد نظام القصاص في الإسلام ، و تبيان الحقوق يقتضي أساليب محددة وواضحة .

من ذلك أيضا قوله : ــ تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض . . .) (المائدة / ٣٣) لا يليق بمثل هذا السياق إيراد أسلوب مجازي ، لأن السياق لبيان حد الحرابة ، فاستخدام المجاز يفتح باب الشبهة في التأويل ، لذلك كان استخدام الأسلوب

الحقيقي من أبلغ ما يكون ، و لو جاء المجاز هنا لفسد المقصود وهو توضيح و تحديد حد الحرابة .

ونجد أسلوب الحقيقة أبلغ الأساليب أيضا في سياق الحديث عن المواريث ، فلا نجد في المواريث رائحة للمجاز ألبتة ، لأن المجاز ينتج عنه توسع في التأويل ، مما يقتضي تمييعا في الأنصباء ، وعدم تحديد دقيق للورثة ، من أجل ذلك وردت على لاحب الحقيقة ؛ لأن الحاجة إلى الحقيقة في مثل هذه السياقات أولى و أبلغ ، بل إن استخدام المجاز هنا يترتب عليه فساد ، و الشريعة تقصد إلى درء المفاسد ، بل تقدم درء المفاسد على جلب المصالح .

نموذج من تراثنا على كشف بلاغة التعبير الحقيقي في القرآن الكريم :

مما يذكر في هذا السياق أن السهيلي (ت :٥٨١هـ) ألف كتابا في آيات الفرائض كشف فيه عن روعة أساليب هذه الآيات ، خذ من ذلك مثلا قوله : " ثم إني نظرت فيما بينه الله ـــ سبحانه ـــ في كتابه من حلال و حرام وحدود و أحكام ، فلم نجده افتتح شيئا من ذلك بما افتتح به آية الفرائض ، و لاختم شيئا من ذلك بما ختمها به ، فإنه قال في أولها : (يوصيكم الله في أولادكم) فأخبر ـــ تعالى ـــ عن نفسه أنه موص ؛ تنبيها على حكمته فيما أوصى به ، وعلى عدله و رحمته ، أما حكمته فإنه علم ـــ سبحانه ـــ ما تضمنه أمره من المصلحة لعباده ، وما كان في فعلهم

قبل هذا الأمر من الفساد ، حيث كانوا يورثون الكبار، و لا يورثون الصغار ، و يورثون الذكور و لا يورثون الإناث ، و يقولن : أنورث أموالنا من لا يركب الفرس و لا يضرب بالسيف و يسوق الغنم ؟ فلو وكلهم الله إلى آرائهم و تركهم مع أهوائهم لمالت بهم الأهواء عند الموت مع بعض النبيين دون بعض ، فأدى ذلك إلى التشاجر و التباغض و الجور و قلة النصفة ، فانتزع الوصية منهم ، و ردها إلى نفسه دونهم ، ليرضى بعلمه و حكمه ، و لذلك قال : ـــ تعالى ـــ حين ختم الآية (و صية من الله و الله عليم حليم) (النساء / ١٢) وقال مثل ذلك (فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما) (النساء / ١١) ([1])

كما كشف عن استخدام حرف الجر في (في أولادكم) بدل الباء مبينا أن استخدام (في) أعلى من استخدام الباء لما في ذلك من زيادة حث على التسوية و العدل فيهم ، و التحذير من الجور عليهم، وجاء بلفظ الوصية عاما غير مقصور على الميراث أو غيره ليدل بذلك على أن العدل غير مقصور على باب دون باب ، وجاء بلفظ الأولاد دون لفظ الأبناء ؛ لأن لفظ الولادة هو الذي يليق بمسألة الميراث ، ففي تخصيص هذا اللفظ فقه و تنبيه ، أما الفقه فإن الأبناء من الرضاعة لا يرثون لأنهم ليسوا بأولاد ، و كذلك بالتبني ، و أما التنبيه فإن لفظ الأولاد يقع على الذكور و الإناث حقيقة ، فلذلك عدل عنه إلى لفظ الأبناء في آية

([1]) الفرائض و شرح آيات الوصية للسهيلي ٢٤ ، ٢٥ تحقيق د / محمد إبراهيم البنا ط جامعة قار يونس ليبيا ١٤٠٠ هـ .

التحريم ، و أما في آية المواريث فجاء بلفظ الأولاد تنبيها علـــى المعـــنى الذي يتعلق به حكم الميراث ، وهو التولد ، و قـــال : ـــــ ســـبحانه (يوصيكم) بلفظ الفعل الدائم ، لا بلفظ الماضي ، و الحكمة في ذلـــك ـــ و الله أعلم ـــ أن الآية ناسخة للوصية المكتوبة عليهم في قوله ـــ تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت . . .) (البقرة / ١٨٠) فلمـــا نسخ الوصية الماضية ، و استأنف حكما آخـــر ، جـــاء بلفـــظ الفعـــل المستأنف ؛ تنبيها على نسخ ما مضى ، و الشروع في حكم آخر فقال : (يوصيكم الله) وجاء بالاسم الظـــاهر ، و لم يقـــل : أوصـــيكم ، و لا نوصيكم ، كما قال : (نتلو عليك) (القصص / ٣) و(نقص عليك) (الأعراف / ١٠١) لأنه أراد تعظيم هذه الوصية ، و الترهيـــب مـــن إضاعتها ، كما قال : (يعظكم الله) (النور / ١٧) و (يحـــذركم الله نفسه) (آل عمران / ٢٨) فمتى أراد تعظيم الأمر جاء بهـــذا الاســـم ظاهرا ، لأنه أهيب أسمائه ، و أحقها بالتعظيم " ([1])

وقوله : (لأبويه) ذكرهما بلفظ الأبوة دون لفظ الولادة ، كما قال : (و بالوالدين إحسانا) (الإســـراء / ٢٣) لأن هـــذه الآيـــة معرضـــها ومقصودها غير ذلك ، و لفظ الوالـــدين ، أوفى ، و أجلـــب للرحمـــة ، و أشكل بالوضع الذي يراد به الرفق بهما ، ولفظ الولادة يـــشعر بحـــال المولود ، و برحمتهما لـــه إذ ذاك ، ألا تـــراه يقـــول في آيـــة الوالـــدين (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) (الإسراء / ١٤) و لفظ الأبوين

([1]) الفرائض و شرح آيات الوصية ٢٥ : ٣٠ بتصرف .

أوقر ، و إن كان الآخر أرق ، ألا تراهم لا يقولون في الكنية إلا يا أبا فلان ، و لايقولون : يا والد فلان ، فكان لفظ الأبوين هاهنا أشكل بهذا المقام الذي هو إعلام بحظ اللذين ينسب إليهما الميت ، و الأبوة في مقابلـــة البنـــوة ، و الوالد في مقابلة الولد ، مع أن في لفظ الأبوة هنا فقها ، وهو سريان الميراث من الأب إلى ابنه إذا عدم الأب ؛ لأن لفظ الأبوة يتناوله ، وقد قرنت معـــه هاهنا الأم بلفظ الولادة ليسري أيضا حق الميراث منها إلى والدها إذا عدمت هي ، كما سرى ذلك في الأب إلى الجد إذا عدم الأب ، وهذا دقيق فافهمه ، وقد تقدم الفرق بين حالتي اللفظين ، و ما يشاكله من مقامات الكلام كـــل واحد من الاسمين ، و تتزيل الأ لفاظ في مواطنها ، وهو معنى البلاغة ، وهي الفصاحة ، ومن هنا يعلم الإعجاز في كلام الله العزيـــز و الحمـــد لله " ([1])

وغير ذلك مما لايتسع المقام له ، مما كشف عن وعيه ـــ رحمه الله ـــ بالسياق ، وما يلائمه من الأساليب من أصغر وحدة في التركيب إلى أكـــبر وحـــدة ، فهؤلاء هم شيوخنا ، و ذلك هو تراثنا ، وقد كشفت بما مضى عن أنهـــم ـــ رحمهم الله ـــ كانوا على وعي تام بأن للسياق أثرا بالغا في اصطفاء التراكيب .

([1]) الفرائض و شرح آيات الوصية ٤٣ ، ٤٤ .

و في نهاية المطاف يمكن القول بأن الأسلوب له عدة مفاهيم وشروط في القديم و الحديث يمكن إيجازها فيما يلي : ـــ

١ ـــ أن الأسلوب في تراث القدماء هو :

أ ـــ الطريقة التي يترسمها الشاعر أو الناثر في أداء المعنى .

ب ـــ الضرب من النظم و الطريقة فيه .

جـــ ـــ النمط من التركيب ، فالقصر أسلوب ، و الفصل و الوصل أسلوب ، و الإيجاز أسلوب . . . . الخ

٢ ـــ أن القدماء اشترطوا تلاؤم الأسلوب مع الغرض المسوق له الكلام، و الحال الذي ورد فيه ، و أن الأسلوب ينبغي أن يختلف الأسلوب بـــاختلاف الغرض و السياق .

٣ ـــ أن الأسلوب عند المحدثين هو الصورة اللفظية ، التي يعبر عن المعاني، أو نظم الكلام و تأليفه لأداء الأفكار ، أو هو العبارات اللفظية المتـــسقة لأداء المعاني .

٤ ـــ اتفق المحدثون مع القدماء في أن الأسلوب هو النمط مـــن التركيـــب كالحقيقة و المجاز ، و الاستفهام ، و غير ذلك من الأساليب .

٥ ـــ أن الأسلوب هو العدول عن النمطية في التراكيب عند بعض المحدثين .

٦ ـــ أن الأسلوب عند الغرب هو مجموعة من عناصر اللغة المؤثرة عاطفيـــا على المستمع ، أو القارئ ، أو أنه هو طابع العمل اللغوي، وخاصـــيته التي يؤديها ، أو أن الأسلوب هو مظهر القول الذي ينجم عن اختيار وسائل التعبير ، أو أن الأسلوب هو الرجل .

الفصل الثالث
أثر الماء في القرآن الكريم
بين الحقيقة و المجاز

توطئة حول الخلاف في القول بالمجاز في الذكر الحكيم :

اختيارنا أسلوب الحقيقة و المجاز لبيان أثر السياق في اصطفاء كل في موضعه اقتضانا إيجاز القول في هذه القضية ، وقد اشتجر الخلاف بين أهل العلم قديما و حديثا حول وقوع المجاز في الذكر الحكيم على ثلاثة آراء .

الأول : إنكار وقوع المجاز في اللغة و القرآن الكريم .

الثاني : إنكار وقوع المجاز في القرآن الكريم ، و القول بوقوعه في اللغة .

الثالث : القول بوقوع المجاز في اللغة و القرآن الكريم .

ولكل رأي حجته و أنصاره و مؤيدوه ، فمن الحجج التي يحتج بها أصحاب الرأيين الأولين .

١ ــ أنه لم يقل به أحد من السلف .

٢ ــ أنه لم يتوقف على الوضع الأول ليصح نقله عنه ، و الوضع الأول منتف .

٣ ــ أن المجاز يتوقف على التقييد بعد الإطلاق ، و الألفاظ لم تستعمل إلا مقيدة ، و القول بالإطلاق باطل .

٤ ـــ أن المجاز مخل بالفهم بدون قرينة ، و مع القرينة فيه تطويل بـــدون فائدة .

٥ ـــ أن المجاز يجوز نفيه ، و ما جاز نفيه فهو كذب .

٦ ـــ أنه لو كان في القرآن مجاز لجاز وصـــف الله ـــ ســـبحانه ـــ أنـــه متجوز أوقائل بالمجاز ، و هذا ممتنع اتفاقا .

٧ ـــ أن المجاز لا يعدل إليه إلا عند العجز عن الإتيان بالحقيقة ، و العجز في جانب الله ـــ سبحانه ـــ محال .

٨ ـــ أن المجاز لم تقل به أمة من الأمم ، و لم يعـــرف أن أمـــة قـــسمت الألفاظ إلى حقيقة و مجاز .

وممن ذهب إلى إنكار وقوع المجاز في القرآن داود الظاهري، و ابنـــه محمد ، و أبو الحسن الجزري ، و أبو الفضل التميمي من الحنابلة، و محمد بن خويز منداد من المالكية ، و ابن القاص من الـــشافعية ، و أبـــو مسلم الأصفهاني من المعتزلة ، و ابن تيمية الذي احتدم الخلاف في هـــذه القضية على يده ، و تلميذه ابن القيم ، وهو ألد منه خصومة ، ومنـــهم أيضا الشيخ الشنقيطي ، وممن ذهب إلى إنكار وقوع المجاز في اللغة أبـــو إسحاق الإسفرائيني .

رد المثبتين للمجاز أدلة المنكرين له :

رد القائلون بوقوع المجاز في اللغة و القرآن الكريم الأدلة التي احتج بها الفريق الأول على النحو التالي :

١ ـ أما القول بأنه لم يقل به أحد من السلف ، فهو منقوض باستقراء تراث الأئمة فمن القائلين بالمجاز من السلف سيبويه في (الكتاب) و الفراء في (معاني القرآن)وأبو عبيدة معمربن المثنى في(مجاز القرآن) وابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن) و (تأويل مختلف الحديث) و المبرد في (الكامل) وابن جني في (الخصائص) و ابن فارس في (الصاحبي) و أبو البقاء العكبري في (التبيان في شرح الديوان) و أبو زيد القرشي في (جمهرة أشعار العرب) و الجاحظ في (الحيوان) و (البيان و التبيين) وابن المعتز في (البديع) و القاضي الجرجاني في (الوساطة) و الآمدي في (الموازنة) و (الإحكام في أصول الأحكام) و الشريف الرضي في (المجازات النبوية) و (تلخيص البيان في مجازات القرآن) وابن رشيق في (العمدة) وابن الأثير في (المثل السائر) وقدامة في نقد (الشعر) و المرزباني في (الموشح) و الثعالبي في (يتيمة الدهر) وابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) و الرماني و أبو هلال العسكري و الباقلاني و الخفاجي و عبد القاهر و السكاكي و الخطيب و شراح التلخيص ، و من المفسرين ابن جرير وابن عطية و الزمخشري و القاضي البيضاوي و القاضي أبو السعود ، ومن القائلين بالمجاز الهروي في (الغريبين) و ابن حزم الظاهري في (الإحكام)

و الغزالي في (المستصفى) و الزركشي في (البحر المحيط) و الإسـنوي و ابن الحاجب في (مختصر المنتهى الأصولي) و كـذلك ابـن النجـار الحنبلي في (شرح الكواكب المنير) و كذلك شراح الحديث ، و يطول الكلام باستقراء القائلين بالمجاز من الأسلاف ، و كلـهم مـن العلمـاء الموثوق بدينهم ، وما من ريب في أن كثيرا من هؤ لاء قد طـالعوا آراء السلف من القائلين بالمنع ، و لم يروا حرجا في القول بالمجاز .

٢ ـ ردوا التوقف على الوضع الأول بأن إنكار الوضع شاذ ، و قد أقر به أبو إسحاق الإسفرائيني .

٣ ـ أن ادعاء التسوية في دلالات القيد محال ، فليست دلالة القيـد في (شابت لمة المكروب) كدلالة القيد في قول القائل : (شابت لمة الليل) فالتسوية بين هاتين الدلالتين منكر عقلا ونقلا .

٤ ـ ردوا ادعاء التطويل بالقرينة بلافائدة بأن كلامهم ينـاقض بعـضه بعضا ، فكيف يقولون : عن المجاز بلا قرينة إخلال بالفهم ، ثم يقولون : إن القرينة تطويل بلا فائدة ، أليس دفع الإخلال بالفهم فائدة ؟ !

٥ ـ أما القول بأن المجاز كذب ، فالرد عليه أن النفي المراد هـو نفـي إرادة المعنى الحقيقي ، أما المعنى المجازي فلا يصح نفيه ، و مجوزو المجاز إنما اشترطوا فيه القرينة لدفع أن يقع في الفهم إرادة المعنى الحقيقي .

٦ ـ الرد على امتناع وصفه ـ سبحانه ـ بأنه متجوز متوقـف علـى عدم ورود الإذن الشرعي ، فليس المانع لغويا .

٧ ــ و ردوا القول بأن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة و مجاز بدعة لم تقل به امة من الأمم ، بما ترجم عن أرسطو و غيره .

و الملحوظ أن ابن تيمية لم يتعرض للكـــلام علـــى المجـــاز إلا في مواطن الحديث عن العقيدة في موضعين ، أحدهما : في مجموع الفتاوى ، و ثانيهما : في كتابه الإتقان ، و نثر ذلـــك في مواضـــع مـــن كتابيـــه (دقائق التفسير) و (الإيمان) و قد أقام دعواه على عدم ورود المجـــاز عن السلف ، و قد سبق رد ذلك ، بيد أن الظاهر من اســـتقراء كـــلام الشيخ أن له مذهبين ، الأول : منع فيه المجاز في اللغة و القرآن الكـــريم، و الثاني : أجاز فيه المجاز في اللغة و القرآن الكريم ، فمذهب المنـــع هـــو المذهب الجدلي النظري ، ومذهب الإجازة هو المذهب السلوك العملي ، وقد ظهر هذا المذهب في تأويلاته المجازيـــة الـــتي وردت حـــول بعـــض النصوص الشرعية و غير الشرعية ، وهي أنواع تـــأويلات نقلـــها عـــن السلف ، ثم ارتضاها ، و تأويلات نقلها عن السلف ، ثم أضاف إليهـــا مرتضيا لها جميعا ، و تأويلات استأنف هو القول فيـــه ، و ربمـــا يرجـــع إنكاره للمجاز إلى كثرة التأويلات التي تعدى بها قائلوها على النـــصوص الشرعية كالباطنية و الجهمية و الرافضة و الفلاسفة و غلاة الـــصوفية ، و قد قال ابن تيمية نفسه : و لو كان المجاز كذبا ، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا كان أكثر كلامنا فاسدا .

وقد صدق الزركشي حين قال : لو وجب خلو القرآن من المجاز ، لوجب خلوه من التوكيد و الحذف و تثنية القصص و غيره ، و لو سقط المجاز من القرآن سقط شطر الحسن .

و الظاهر أن منشأ الخلاف في هذه القضية هو البحث في أسماء الله و صفاته ، فقد وردت في القرآن نصوص يوهم ظاهرها التشبيه ، و كذلك السنة النبوية الشريفة ، فأقرها قوم على ما هى عليه من غير تعطيل و لا تمثيل ، و فريق آخر توقف ، و هما مذهبان للسلف ، و فريق آخر أول كل ما أوهم ظاهره تمثيلا أو تجسيما ، فمنشأ الخلاف ليس لغويا ، و إنما هو عقدي ، و خلاصة القول أن إنكار القول بالمجاز شبهة كتبت لها الشهرة ، لذلك نرى الذين ينكرون المجاز يتكلفون في تأويل الآيات التي لا يمكن حملها على الحقيقة ، كذلك نرى جمهور المنكرين للمجاز ينكر المجاز في القرآن ، و يثبته في اللغة ، وهو تناقض واضح ، لأن القرآن الكريم إنما نزل بلغة العرب ([1]) و تمضي هذه الدراسة مع القول بالمجاز في اللغة و القرآن الكريم .

([1]) استخلصنا الكلام في هذه القضية من المراجع التالية البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ٢ / ١٥٨ وما بعدها ، و الحقيقة و المجاز في القرآن الكريم للدكتور / على محمد حسن العماري من اول الكتاب إلى آخره (٥ : ٩٢) ط السعادة ١٣٩٤ هـ و التصوير البياني للدكتور / محمد أبو موسى ١٠ وما بعدها ط وهبة ١٤٠٠ هـ ، و أجمع ما كتب في هذه القضية كتاب المجاز في اللغة و القرآن الكريم بين الإجازة و المنع للدكتور / عبد العظيم المطعني هو جزءان كبيران يراجع من أوله إلى آخره ط وهبة

الآيات موضع الدراسة :

ورد الحديث في القرآن الكريم عن الماء كثيرا في أكثر من ثلاثة و ستين موضعا ، والذي يعنينا من هذه المواضع الآيات التي تتحدث عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي في مواطن ، و يعبر عن الأثر ذاته في مواطن أخر بالمجاز ؛ لأنه مما يظهر فيه أثر السياق في اصطفاء الأسلوب ظهورا بينا.

أولا : التعبير عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي :

١ ــ قال : ــ تعالى ــ (الذي جعل لكم الأرض فراشا و السماء بناء و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا و أنتم تعلمون) (البقرة / ٢٢)

٢ ــ قال : ــ تعالى ــ (هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر و مستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج به حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية و جنات من أعناب و الزيتون و الرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر و ينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) (الأنعام / ٩٨ ، ٩٩)

٣ ــ قال : ــ تعالى ــ (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) (الأعراف / ٥٧)

٤ ــ قال : ــ تعالى ــ (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس و الأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازينت و ظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (يونس / ٢٤)

٥ ــ قال : ــ تعالى ــ (الله الذي خلق السموات و الأرض و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم و سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره و سخر لكم الأنهار) (إبراهيم / ٣٢)

٦ ــ قال : ــ تعالى ــ (و أرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه و ما أنتم له بخازنين) (الحجر / ٢٢)

٧ ــ قال : ــ تعالى ــ (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع و الزيتون و النخيل و الأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) (النحل / ١٠ ، ١١)

٨ ــ قال : ــ تعالى ــ (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح و كان الله على كل شئ مقتدرا) (الكهف / ٤٥)

٩ ــ قال : ــ تعالى ــ (الذي جعل لكم الأرض مهدا و سلك لكم فيها سبلا و أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولى النهى) (طه /٥٣ ، ٥٤)

١٠ ــ قال : ــ تعالى ــ (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج) (الحج / ٥)

١١ ــ قال : ــ تعالى ــ (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير) (الحج / ٦٣)

١٢ ــ قال : ــ تعالى ــ (و أنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض و إنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل و أعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون) (المؤمنون / ١٨ ، ١٩)

١٣ ــ قال : ــ تعالى ــ (أمن خلق السموات و الأرض و أنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون) (النمل / ٦٠)

١٤ ــ قال : ــ تعالى ــ (خلق السموات بغير عمد ترونها و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم و بث فيها من كل دابة و أنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) (لقمان / ١٠)

١٥ ــ قال : ــ تعالى ــ (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم و أنفسهم أفلا يبصرون) (السجدة / ٢٧)

١٦ ــ قال : ــ تعالى ــ (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها و غرابيب سود ومن الناس و الدواب و الأنعام مختلــف ألوانــه كــذلك . . .) (فاطر / ٢٧)

١٧ ــ قال : ــ تعالى ــ (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فــسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مــصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب) (الزمر / ٢١)

١٨ ــ قال : ــ تعالى ــ (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات و حب الحصيد و النخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد و أحيينا بــه بلدة ميتا كذلك الخروج) (ق / ٩ ، ١٠)

١٩ ــ قال : ــ تعالى ــ (و أنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا و نباتا و جنات ألفافا) (النبأ / ١٤ : ١٦)

٢٠ ــ قال : ــ تعالى ــ (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا و عنبا و قضبا و زيتونــا و نخــلا وحدائق غلباوفاكهة و أبا متاعا لكم و لأنعامكم)(عبس / ٢٤ : ٣٢)

ثانيا : التعبير عن أثر الماء بالأسلوب المجازي :

١ ــ قال : ــ تعالى ــ (إن في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس و ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موها و بث فيها من كل دابة و تصريف الرياح و السحاب المسخر بين السماء و الأرض لآيات لقوم يعقلون) (البقرة / ١٦٤)

٢ ــ قال : ــ تعالى ــ (و الله الذي أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون) (النحل / ٦٥)

٣ ــ قال : ــ تعالى ــ (وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته و أنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا و نسقيه مما خلقنا أنعاما و أناسي كثيرا) (الفرقان / ٤٨ ، ٤٩)

٤ ــ قال : ــ تعالى ــ (و لئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) (العنكبوت / ٦٣)

٥ ــ قال : ــ تعالى ــ (ومن آياته يريكم البرق خوفا و طمعا و ينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (الروم / ٢٤)

٦ ــ قال : ــ تعالى ــ (و الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء و يجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا

أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون و إن كانوا من قبـــل أن ينـزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحـــي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيـــي المـــوتى وهـــو علـــى كـــل شـــئ قـــدير) (الروم / ٤٨ : ٥٠)

٧ ـــ قال : ـــ تعالى ـــ (و الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فـــسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) (فاطر / ٩)

٨ ـــ قال : ـــ تعالى ـــ (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شـــئ قدير) (فصلت / ٣٩)

٩ ـــ قال : ـــ تعالى ـــ (إن في السموات و الأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليـــل و النـــهار و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتـــصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) (الجاثية / ٣ : ٥)

١٠ ـــ قال : ـــ تعالى ـــ (الذي جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكـــم فيها سبلا لعلكم تهتدون و الذي نزل من السماء ماء بقدر فأنـــشرنا بـــه بلدة ميتا كذلك تخرجون) (الزخرف / ١٠ ، ١١)

قراءة في سياق الحال لهذه الآيات :

لفقه أثر السياق في اصطفاء الأساليب هنا لابد أن نتحرك بين سياقين سياق المقال وهو (الترتيب المصحفي) و سياق حال النزول ، و سبيلنا إلى فقهه قراءة ترتيب النزول وما ورد من أسباب النزول ، و سياق النزول سبيلنا فيه التوفر على ما أحاط بالآية موضع البحث من بين يديها ومن خلفها في المصحف الشريف ، وقراءة السياقين تحتاج إلى جهد في الفقه قد يخالفه الصواب فيكون الأجران ، و قد لا يخالفه فيحصل أجر واحد ، و لأجل فقه سياق الحال نعرض جدولين :

جدول (١) لترتيب سور القرآن حسب النزول على ما عليه الجمهور.

م	السورة	نزولها	م	السورة	نزولها	م	السورة	نزولها	م	السورة	نزولها
١	العلق	مكية	٣٠	القارعة	مكية	٥٩	الزمر	مكية	٨٨	الأنفال	مدنية
٢	القلم	مكية	٣١	القيامة	مكية	٦٠	غافر	مكية	٨٩	آل عمران	مدنية
٣	المزمل	مكية	٣٢	الهمزة	مكية	٦١	فصلت	مكية	٩٠	الأحزاب	مدنية
٤	المدثر	مكية	٣٣	المرسلات	مكية	٦٢	الشورى	مكية	٩١	الممتحنة	مدنية
٥	الفاتحة	مكية	٣٤	ق	مكية	٦٣	الزخرف	مكية	٩٢	النساء	مدنية
٦	المسد	مكية	٣٥	البلد	مكية	٦٤	الدخان	مكية	٩٣	الزلزلة	مدنية
٧	التكوير	مكية	٣٦	الطارق	مكية	٦٥	الجاثية	مكية	٩٤	الحديد	مدنية
٨	الأعلى	مكية	٣٧	القمر	مكية	٦٦	الأحقاف	مكية	٩٥	محمد	مدنية
٩	الليل	مكية	٣٨	ص	مكية	٦٧	الذاريات	مكية	٩٦	الرعد	مدنية
١٠	الفجر	مكية	٣٩	الأعراف	مكية	٦٨	الغاشية	مكية	٩٧	الرحمن	مدنية
١١	الضحى	مكية	٤٠	الجن	مكية	٦٩	الكهف	مكية	٩٨	الإنسان	مدنية
١٢	الشرح	مكية	٤١	يس	مكية	٧٠	النحل	مكية	٩٩	الطلاق	مدنية
١٣	العصر	مكية	٤٢	الفرقان	مكية	٧١	نوح	مكية	١٠٠	البينة	مدنية
١٤	العاديات	مكية	٤٣	فاطر	مكية	٧٢	إبراهيم	مكية	١٠١	الحشر	مدنية
١٥	الكوثر	مكية	٤٤	مريم	مكية	٧٣	الأنبياء	مكية	١٠٢	النور	مدنية
١٦	التكاثر	مكية	٤٥	طه	مكية	٧٤	المؤمنون	مكية	١٠٣	الحج	مدنية
١٧	الماعون	مكية	٤٦	الواقعة	مكية	٧٥	السجدة	مكية	١٠٤	المنافقون	مدنية
١٨	الكافرون	مكية	٤٧	الشعراء	مكية	٧٦	الطور	مكية	١٠٥	المجادلة	مدنية
١٩	الفيل	مكية	٤٨	النمل	مكية	٧٧	الملك	مكية	١٠٦	الحجرات	مدنية
٢٠	الفلق	مكية	٤٩	القصص	مكية	٧٨	الحاقة	مكية	١٠٧	التحريم	مدنية
٢١	الناس	مكية	٥٠	الإسراء	مكية	٧٩	المعارج	مكية	١٠٨	التغابن	مدنية
٢٢	الإخلاص	مكية	٥١	يونس	مكية	٨٠	النبأ	مكية	١٠٩	الصف	مدنية
٢٣	النجم	مكية	٥٢	هود	مكية	٨١	النازعات	مكية	١١٠	الجمعة	مدنية
٢٤	عبس	مكية	٥٣	يوسف	مكية	٨٢	الانفطار	مكية	١١١	الفتح	مدنية
٢٥	القدر	مكية	٥٤	الحجر	مكية	٨٣	الانشقاق	مكية	١١٢	المائدة	مدنية
٢٦	الشمس	مكية	٥٥	الأنعام	مكية	٨٤	الروم	مكية	١١٣	التوبة	مدنية
٢٧	البروج	مكية	٥٦	الصافات	مكية	٨٥	العنكبوت	مكية	١١٤	النصر	مدنية
٢٨	التين	مكية	٥٧	لقمان	مكية	٨٦	المطففين	مكية			
٢٩	قريش	مكية	٥٨	سبأ	مكية	٨٧	البقرة	مدنية			

جدول رقم (٢) ترتيب مواضع الدراسة ونوع الأسلوب ، ونزول السورة ، ورقم الآية .

السورة	رقم نزولها	الآية	الأسلوب	نزولها	السورة	رقم نزولها	الآية	الأسلوب	نزولها
عبس	٢٤	٢٥:٣٢	حقيقي	مكية	الجاثية	٦٥	٥	مجازي	مكية
ق	٣٤	١٠	حقيقي	مكية	النحل	٧٠	١١	حقيقي	مكية
الأعراف	٣٩	٥٧	حقيقي	مكية	النحل	٧٠	٦٥	مجازي	مكية
الفرقان	٤٢	٤٩	مجازي	مكية	إبراهيم	٧٢	٣٣	حقيقي	مكية
فاطر	٤٣	٩	مجازي	مكية	السجدة	٧٥	٢٧	حقيقي	مكية
فاطر	٤٣	٢٧	حقيقي	مكية	الكهف	٦٩	٤٥	حقيقي	مكية
طه	٤٥	٥٣	حقيقي	مكية	المؤمنون	٧٤	١٩،١٨	حقيقي	مكية
النمل	٤٨	٦٠	حقيقي	مكية	النبأ	٨٠	١٤	حقيقي	مكية
يونس	٥١	٢٤	حقيقي	مكية	الروم	٨٤	٢٤	مجازي	مكية
الحجر	٥٤	٢٢	حقيقي	مكية	الروم	٨٤	٥٠:٤٨	مجازي	مكية
الأنعام	٥٥	٩٩	حقيقي	مكية	العنكبوت	٨٥	٦٣	مجازي	مكية
لقمان	٥٧	١٠	حقيقي	مكية	البقرة	٨٧	٢٢	حقيقي	مدنية
الزمر	٥٩	٢١	حقيقي	مكية	البقرة	٨٧	١٦٤	مجازي	مدنية
فصلت	٦١	٣٩	مجازي	مكية	الحج	١٠٣	٥	حقيقي	مدنية
الزخرف	٦٣	١١	مجازي	مكية	الحج	١٠٣	٦٣	حقيقي	مدنية

الذي نلحظه من قراءة هذين الجدولين أن هذه المواطن التي ورد فيها الحديث عن الماء و أثره نزلت في مكة ، حيث بلغ النازل منها بمكة ستة وعشرين موضعا ، و النازل بالمدينة أربعة مواضع ، كما لحظنا أن المواضع التي نبحث فيها جاءت على النحو التالي : عشرون موضعا منها عبر عن أثر الماء فيها بالأسلوب الحقيقي و عشرة مواضع عبر فيها عن أثر الماء بالأسلوب المجازي ، و المواضع التي أنزلت بمكة تسعة مواضع منها جاء التعبير فيها بالمجاز ، و سبعة عشر موضعا جاء التعبير فيها بالأسلوب الحقيقي ، أما المواضع التي أنزلت بالمدينة فقد جاء موضع واحد منها بالتعبير المجازي و ثلاثة مواضع بالتعبير الحقيقي ، كل هذه القراءة لسياق النزول تطرح مجموعة من الأسئلة :

١ ـ لماذا كانت معظم المواضع من النازل بمكة (٢٦ من ٣٠) و أي حال يعكسه هذا الحصر ؟

٢ ـ لماذا كانت معظم مواطن المجاز من النازل بمكة (٩ من ١٠) ؟

نحاول فيما يلي أن نجيب على هذه الأسئلة ، ونقول ـ بحول الله ـ إن نزول معظم هذه المواضع بمكة (٢٦ من ٣٠) في مكة مقتضى حال ، حيث إن هذه الفترة كانت فترة إنكار للبعث والتوحيد و الألوهية فالقرآن قد نزل في أمة مشركة منكرة للبعث ؛ لذا قال قائلهم :

حياة ثم موت ثم بعث * حديث خرافة يا أم عمرو

وقد أبصرنا أن الأسلوب الحقيقي جاء في سياقات التوحيد، و إثبات التوحيد جاء في هذه السياقات بعدة طرق ، إما بإثبات القدرة المتفردة ، و إما بالامتنان في بيان الربوبية ، و أن ورود الأسلوب الحقيقي غالبا يتبعه حديث عن البعث ، وغالبا ما يكون الحديث عن البعث مؤسسا على ما مضى من ذكر أثر الماء .

وطريق إثبات البعث بقياسه بالإنبات هو الملائم لبيئة جل رزقها الرعي و الزراعة فوق أنه دليل مشاهد حسي لامدخل لمرتاب في إفساد مثل هذه الدليل ، فمن حيث سياق الحال جاء اصطفاء أثر الماء طريقا لإثبات البعث مقتضى حال ، وهو من أدق ما يكون ملاءمة لسياق الحال.

قد يقال : إن هذا الحديث قد ورد أيضا فيما أنزل في المدينة،ولم تكن فترة إنكار بعث و لاشرك ، و يرد على ذلك بالنظر في سياقات هذه المواطن ، فسورة البقرة ـــ وهى مدنية ـــ ورد فيها الحديث عن أثر الماء في موضعين (٢٢ ، ١٦٤) و الموضع الأول تعبير حقيقي ، و الثاني تعبير مجازي ، و لو تأملنا سياق سورة البقرة لوجدنا مدار الأمر فيها على البعث ، و كأن خطاب البعث فيها خطاب لليهود ، و اليهود قد شكلوا عنصرا مهما في المدينة المنورة في الفترة الأولى ، وفي محاولة تأليب المسلمين فكريا على رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ وظهر أيضا

النفاق في المدينة ، و النفاق يناقض الإيمان ، و الإيمان مداره الغيب الذي مداره الإيمان بالبعث ؛ لذلك رأينا مواطن الحديث عن البعث كلها في اليهود في هذه السورة كما سيأتي بيانه في السياق المقالي ، وهذا ما يميز سياق سورة البقرة عن سواها فقد جمعت بين الحديث عن المنافقين و الحديث عن اليهود ، وجعل مداره البعث حتى لا يقال : لم لم يرد شيئ من الحديث عن أثر الماء في سورة التوبة مثلا ؟ فكلها حديث عن النفاق و الشرك ، أو سورة المائدة ، و حديثها عن اليهود كثير وغير ذلك ، و الحق أنه لم يجتمع حديث عن اليهود و المنافقين و البعث إلا في سورة البقرة ، وذلك باستقراء سياقات سور الذكر الحكيم .

أما عن ورود ذلك في سورة الحج ــ وهي مدنية ــ في موضعين (٥ ، ٦٣) فذلك أن سورة الحج حديث عن الحج يذكر بالحشر ، و أساس الإيمان بالحشر الإيمان بالبعث ؛ لذلك افتتحت السورة بالحديث عن الساعة و النشر بعد الحشر ، فجاء الحديث عن أثر الماء ملائما سياقه، وملائما سياق الحال الذي يتكرر كل عام .

ولعل مما يؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم ، و أبو الشيخ في كتاب العظمة عن عطاء قال : نزل على النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ بالمدينة (و إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) (البقرة / ١٦٣) فقال كفار قريش بمكة : كيف يسع الناس إله واحد ؟

فأنزل الله هذه الآية (إن في خلق السموات و الأرض واختلاف الليــل و النهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . .) (البقرة / ١٦٤) ([1]) وهذا يعني أن نزول الآية في المدينة مقتضى حال لأهل مكة من المشركين ، كما يفسر لنا سبب النزول السر وراء اصطفاء أسلوب المجاز في آية البقرة (فأحيا به الأرض بعد موتها) (١٦٤) لأن سياق الحال يدل على أن الآية نزلت في سياق إثبات الألوهية لا إثبــات الربوبية ، و السياق المقالي يؤيد هذا و يبرزه ، فقد جاءت الآية موضــع البحث عقب قوله : ــ تعالى ــ (و إلهكم إله واحــد لا إلــه إلا هــو الرحمن الرحيم) (البقرة / ١٦٣) فسياق المقال يدل على أن الحديث في الألوهية ، و المجاز هنا في (فأحيا) يدل على التفرد ، ولو قال : فأنبتنا ما صلح في هذا السياق ؛ لأن للإنسان دخلا في الإنبــات ، وكمــا قــال الأسلاف : لولا الأسباب لما ارتاب المرتاب ، و المجاز يدل على التفــرد ، لأنه بلفظ الإحياء ، و لم يدَّع الإحياء أحد ، فهو من صفات الألوهية .

وهذا مما يفتح لنا الأفق في فقه اصطفاء الأساليب ، و أنه مــتى كان التعبير عن أثر الماء بأسلوب الحقيقة فالمقام مقام حديث عن الربوبية ، و إظهار الامتنان و القدرة ، ومتى كان التعبير عن أثر المــاء بأســلوب المجاز كان الجدل في الألوهية ، وقضيتا الربوبية و الألوهية من القــضايا المركزية في تلك الفترة ، و في أشباهها من ظروف الحال ، كمايكشف لنا

([1]) لباب النقول للسيوطي ١ / ١١٧ ، و الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٩١ .

ترتيب النزول أن هاتين القضيتين (الألوهية و الربوبية) كان يجري الحديث فيهما على فترات من جانب المشركين ، وكان يتم تناول إحداهما حينا ، و الأخرى أحيانا أخر ، و أن القرآن العظيم اتخذ في حال نزوله عدة مسالك لإثبات هاتين القضيتين ، فالبعث إثبات للألوهية، و يلائمه المجاز ، و الامتنان و القدرة إثبات للربوبية ، و يلائمه الحقيقة وهكذا ؛ لذا حين نظرنا إلى الذكر الحكيم في ترتيب نزوله لم نر أسلوب الحقيقة جاء مرتبا ، ثم جاء من بعده أسلوب المجاز في بيان أثر الماء ، و إنما كان المتنزل أولا بالأسلوب الحقيقي (عبس / ٢٤ : ٣٢) ثم أسلوب حقيقي عطف عليه أسلوب مجازي (ق / ١٠) ثم أسلوب حقيقي (الأعراف / ٥٧) ثم أسلوب مجازي (الفرقان / ٤٩) ثم أسلوب مجازي (فاطر / ٩) ثم أسلوب حقيقي (فاطر / ٢٧) ثم تتوالى أساليب الحقيقة (طه ، النمل ، الحجر ، يونس ، الأنعام ، لقمان ، الزمر) ثم تأتي أساليب مجاز ، ثم أساليب حقيقة ، و هكذا .

ومما يذكر أن هذا الترتيب النزولي على النحو الذي ذكرناه يرشدنا إلى أن الجدل كان في الربوبية أكثر منه في الألوهية ، وذلك أن الإقرار بالربوبية يفضي حتما بالإقرار بالألوهية ، لذا لم يقروا بالربوبية ، ومن أجل ذلك كثر التعبير عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي (٢٠ موضعا من ٣٠ موضعا) ، وشئ آخر هو أنه لم يدَّع الإحياء مدَّعٍ، و إنما يكثر الادعاء في الإنبات ، وهذا ما كان عليه مشركو مكة ، هذا

،و التوحيد حق الألوهية ، و العبادة حق الربوبية ، و التوحيد يحصل بالإقرار به مرة باللسان مصدقا لما في القلب ، أما العبادة فيتكرر وقوعها ، فناسبت القلة ما لا يتكرر ، و ناسبت الكثرة ما يتكرر ، كما أن الإنعام و الامتنان سبيل إثبات الربوبية،و الإحياء سبيل إثبات الألوهية .

هذا ومما يؤيد ذلك أن حديث القرآن عن البعث استأثرت به الفترة المكية ، فقد ورد الحديث عن البعث في السور الآتية (هود، الإسراء ، مريم ، الأنبياء ، المؤمنون ، يس ، الصافات ، غافر ، الدخان، الأحقاف ، النجم ، الواقعة ، المطففين) وكلهن مكيات وسور (الحديد ، المجادلة ، التغابن) وهن مدنيات ([1])

هذا ،ولو تدبرنا السور السالف ذكرهن لوجدنا ذكرا للماء في سياقهن إما تصريحا و إما تلويحا ، فهناك ارتباط و تلازم بين الماء و البعث ، فقصة نوح ـــ عليه السلام ـــ و إهلاك قومه بالماء معروفة في سورة هود ، وفي سورة الإسراء ذكر للماء (الآية/ ٧٠) وفي الأنبياء (وجعلنا من الماء كل شئ حي) (الآية / ٣٠) أما سورة مريم فقد عول في إثبات البعث فيها على الخلق الأول ، وجاء ضمنا في سورة يس (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) (يس / ٣٣) وفي الصافات (ثم أغرقنا الآخرين) (٨٢) و (إذ أبق إلى الفلك المشحون) (١٤٠) وفي غافر ذكر الماء بطريق المجاز المرسل (هو الذي يريكم آياته

([1]) يستظهر في المصحف الشريف هود / ٧ الإسراء / ٤٩ ، ٩٨ مريم / ٦٦ الأنبياء / ١٠٤ المؤمنون / ١٥ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٨٢ يس / ١٢ ، ٣٣ ، ٧٨ الصافات / ١٦ ، ٩٥ غافر / ٦٨ الدخان / ٨ ، ٣٥ الأحقاف ٣٣ النجم / ٤٤ الواقعة / ٤٧ المطففين / ٤ الحديد / ٢ المجادلة / ٦ ، ١٨ التغابن / ٧ .

و يترل لكم من السماء رزقا) (١٣) وفي الدخان (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون) (٢٤) وفي الأحقاف (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) (٢٤) وفي الواقعة (أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المترلون) (٦٨ ، ٦٩) أما سورة المطففين فإنها آخر ما نزل بمكة ؛ لذلك خلت من طرق الإثبات ، و اتجهت إلى الوعيد ، وتوفر أسلوبها على ذلك ، وفي سورة الحديد ــ التي اشتملت على حديث عن المنافقين ــ (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها) (١٧) و (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأموال و الأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته) (٢٠) أما الحديث عن البعث في سورة المجادلة ، فقد جاء إخبارا به ، و لم يجئ عاكسا صورة الإنكار التي كانت شائعة في الفترة المكية .

هذا ما استطعنا تجليته في سياق الحال الذي استنبطناه من ترتيب الترول ، و لا يعني ما ذكرناه أننا نقف عند السياق الزمني لهذه الآيات ــ فمعاذ الله أن نذهب هذا المذهب ــ لكننا نتخذ السياق الزمني معراجا للتأويل مع اليقين بأن واقع مشركي مكة يتكرر كثيرا في زماننا، بل إن فقه هذه المواطن في سياقها الزمني يهدي إلى سبيل الخطاب و الدعوة في السياقات المشابهة التي تتكرر عبر الزمان و المكان .

قراءة إجمالية في السياق المقالي لهذه الآيات :

السور التي ورد الحديث فيها عن أثر الماء هي بترتيب المـــصحف الشريف على هذا النحو (البقرة ، الأنعام ، الأعراف ، يونس ، إبراهيم ، الحجر ، النحل ، الكهف ، طه ، الحج ، المؤمنون ، الفرقان ، النمـــل، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، الـــسجدة ، فـــاطر ، الزمـــر ، فـــصلت، الزخرف ، الجاثية ، ق ، النبأ ، عبس) وحين نتأمل سياق المقال الـــذي وردت فيه الآيات في هذه السور نرى أن كل موضع منها سبق بالحديث عن البعث و التوحيد ، أو ألحق به حديث عن البعث و التوحيد ، وقـــد رأيت أن أسرد ذلك في جدول توضيحي حتى يتبين للناظر السياق المقالي لهذه المواضع إجمالا ، موردا ماورد بالتعبير الحقيقي مرتبا حسب المصحف الشريف ، ثم أتبعه ماورد بالتعبير المجازي متبعا ترتيب المصحف الشريف ربما يكون ذلك معينا على فقه سياق المقال :

جدول إجمالي للسياق السابق و اللاحق للآيات

الآية و رقمها	السورة	الأسلوب	السياق السابق	السياق اللاحق
الذي جعل لكم الأرض فراشا و السماء و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . . . (٢٢)	البقرة (مدنية)	حقيقي		* وكنتم أمواتا فأحياكم / ٢٨ *ثم بعثناكم من بعد موتكم ٥٦/ *قصة البقرة ٦٧ :٧٤
هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ . . . (٩٩)	الأنعام (مكية)	حقيقي	* إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا / ٢٩ * و الموتى يبعثهم الله / ٣٦ * ولقد جئتمونا فرادى /٩٤ * يخرج الحي من الميت /٩٥ * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة / ٩٨	
إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس و الأنعام . . . (٢٤)	يونس (مكية)	حقيقي	*إنه يبدأ الخلق ثم يعيده / ٤ *متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم / ٢٣	* ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي / ٣١ * قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ٣٤/ * هو يحيي و يميت و إليه ترجعون /٥٦
وهو الذي يرسل ارياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات (٥٧)	الأعراف (مكية)	حقيقي	* قال فيها تحيون و فيها تموتون ومنها تخرجون /٢٥ * كما بدأكم تعودون / ٢٩	* الذي له ملك السموات و الأرض لا إله هو يحيي و يميت ١٥٨/
الله الذي خلق السموات و الأرض و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . . . (٣٢)	إبراهيم (مكية)	حقيقي	وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله / ٣٠	* يوم تبدل الأرض غير الأرض و السموات وبرزوا لله / ٤٨ *وليعلموا أنما هو إله واحد / ٥٢
و أرسلنا الرياح لواقح	الحجر	حقيقي		* و إنا لنحن نحيي و نميت و

فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين (٢٢)	(مكية)			نحن الوارثون / ٢٣
هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب و منه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع . . (١٠،١١)	النحل (مدنية)	حقيقي	• أتى أمر الله فلا تستعجلوه /١	• أفمن يخلق كمن لا يخلق /١٧ • و الذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون أموت غير أحياء / ٢٠ ،٢١ •و أقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت / ٣٨
واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما . . (٤٥)	الكهف (مكية)	حقيقي	• فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم / ١٠ ، ١١ •كذلك بعثناهم . . . / ١٩ •ما أظن الساعة قائمة / ٣٦	• أولئك الذين كفروا بآيات ربهم و لقائه . . . / ١٠٥
الذي جعل لكم الأرض مهدا و سلك لكم فيها سبلا و أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . . . (٥٣)	طه (مكية)	حقيقي	•إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني / ٨	• منها خلقناكم و فيها نعيدكم /٥٥ •إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو / ٩٨
وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج (٥)	الحج (مدنية)	حقيقي	• إن زلزلة الساعة شئ عظيم /١ •يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث /٥	• ذلك بأن الله هو الحق و أنه يحيي الموتى / ٦ •وأن الساعة آتية لاريب فيهاوأن الله يبعث من في القبور /٧
ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة . . (٦٣)	الحج (مدنية)	حقيقي	الآية السابقة و سياقها سياق لها	وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم / ٦٦
أمن خلق السموات و الأرض و أنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق	النمل (مكية)	حقيقي		• أمن يبدأ الخلق ثم يعيده /٦٤ •وما يشعرون أيان يبعثون/٦٥ • . . . أئنا لمخرجون /٦٧

ذات بهجة . . . (٦٠)				
خلق السموات بغير عمد ترونها و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم و بث فيها من كل دابة و أنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم (١٠)	لقمان (مكية)	حقيقي		• ما خلقكم و لا بعثكم إلا كنفس واحدة / ٢٨ • هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه / ١١
أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم و أنفسهم . . . (٢٧)	السجدة (مكية)	حقيقي	• قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون /١١	• ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين / ٢٨
ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها. . . . (٢٧).	فاطر (مكية)	حقيقي	الآية رقم (٩) وسياقها سياق هذه الآية ، و ستأتي في الأسلوب المجازي	قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا . . . / ٤٠
ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه . . . (٢١)	الزمر (مكية)	حقيقي	• يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث / ٦ • وجعلوا لله أندادا / ٨	• الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمى /٤٢
ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات و حب الحصيد و النخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد و أحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١٠،١١)	ق (مكية)	حقيقي ومجازي	• أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد / ٣	• يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج / ٤٢ •إنا نحن ونميت و إلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير /٤٣، ٤٤
و أنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا و نباتا . (١٤،١٥)	النبأ (مكية)	حقيقي	• عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون / ١:٣	• إن يوم الفصل كان ميقاتا/ ١٧ • يوم ينظر المرء ما قدمت يداه/٤٠
أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا	عبس (مكية)	حقيقي	• ثم إذا شاء أنشره / ٢٢	• فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه / ٣٣ ومابعدها

(٢٦،٢٥)				
إن في خلق السموات و الأرض وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . . (١٦٤)	البقرة (مدنية)	مجازي	الآية (٢٢) وسياقها سياق لها	• فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم /٢٤٣ • أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه/٢٥٩ •رب أرني كيف تحيي الموتى/٢٦٠
و الله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . . . (٦٥)	النحل (مدنية)	مجازي	الآية (١١) وسياقها سياق لها	
و أنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض و إنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل و أعناب (١٩،١٨)	المؤمنون (مكية)	مجازي	•ولقد خلقنا الإنسان من سلالة / ١٤:١٢ •ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون / ١٦:١٥	•هيهات هيهات لماتوعدون /٣٦ • إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا وما نحن بمبعوثين / ٣٧ •قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل /٨٣:٨٢
و أنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا و نسقيه مما خلقنا أنعاما و أناسي كثيرا (٤٩)	الفرقان (مكية)	مجازي	•واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم نفعا و لاضرا و لا يملكون موتا و لاحياة و لانشورا /٣ •وهو الذي جعل الليل لباساوالنوم سباتا وجعل النهار نشورا /٤٧	
ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله . . . (٦٣)	العنكبوت (مكية)	مجازي	•أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده /١٩ • قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة /٢٠	

			•كل نفس ذائقة المـوت ثم إليناترجعون /٥٧	
ويترل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها . . . (٢٤)	الروم (مكية)	مجازي	•الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون /١١ •يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي و يحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجـون / ١٩	•وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه /٢٧ •ومن آياته أن تقوم السماء و الأرض بـأمره ثم إذا دعـاكم دعوة مـن الأرض إذا أنـتم تخرجون /٢٥ •الله الذي خلقكم ثم رزقكـم ثم يميتكم ثم يحييكم هـل مـن شركائكم من يفعل من ذلكـم من شئ /٤٠
الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يـشاء و يجعلـه كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به مـن يشاء من عبـاده إذا هـم يستبشرون و إن كانوا من قبل أن يترل عليهم من قبله لمبلسين فاظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعـد موتها إن ذلك لمحيي المـوتى (٤٨:٥٠)	الروم (مكية)	مجازي	الآية السابقة و سياقها سـياق لها	•ويوم تقوم الساعة يقـسم المجرمون مالبثوا غير ساعة /٥٥
الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور (٩)	فاطر (مكية)	مجازي	•هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء و الأرض لا إله إلا هو/٣ •يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا /٥	الآية (٢٧) و سياقها سـياق لاحق لها
ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء	فاطر (مكية)	مجازي	•وما كنتم تستتترون أن يشهد عليكم سمعكم و لا أبصاركم /	•وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعـت إلى ربي إن لي عنـده

اهتزت وربـت إن الـذي أحياها لمحيي الموتى (٣٩)			٢٢	للحسنى /٥٠
والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتـا كذلك تخرجون (١١)	الزخرف (مكية)	مجازي	•ولئن سـألتهم مـن خلـق السموات و الأرض ليقـولن خلقهن العزيز العليم/٩	•فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعـدون /٨٣ •ولئن سألتهم مـن خلقهـم ليقولن الله / ٨٧
وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعـد موها (٥)	الجاثية (مكية)	مجازي	إن هؤلاء ليقولون إن هـي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين /٣٤،٣٥	•وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومـا يهلكنـا إلا الدهر /٢٤ •قل الله يحييكم ثم يميـتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه/٢٦ •وإذا قيل إن وعد الله حـق والساعة لاريب فيها قلتم مـا ندري ماالساعة /٣٢

قراءة في السياق المقالي لمواضع أثر الماء في القرآن الكريم

أولا : الأسلوب الحقيقي

١ ــ قال تعالى : (الذي جعل لكم الأرض فراشا و السماء بناء و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلــوا لله أندادا وأنتم تعلمون) (البقرة / ٢٢) نلحظ أن هذه الآية جــاءت في سياق الحديث عن المنافقين الــذين لا تــستعبدهم غــير المنــافع ، و لا يستهويهم غير المكاسب ؛ لذا خاطبهم ربنا خطاب التجار (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجــارتهم و مــا كــانوا مهتــدين) (البقرة / ١٦) و ذكرهم في مقابل من يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . . . واختتم الحديث عنهم بالتهديد بإذهاب نعمــتين مهمــتين منــهم (و لو شاء الله لذهب بسمعهم و أبصارهم) (البقرة / ٢٠) وفي هــذا السياق جاء الأمر بالعبادة (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكــم) (البقرة / ٢١) ولنا أن نستنبط سرا وراء اصطفاء (ربكم) ولم لم يقل :اعبدوا الله . . . ولعل السر الكامن وراء اصطفاء الربوبية هــو هــذا السياق المادي للمنافقين الذين لا منطق لهم سواه ، و لا مقنع لهم غــيره، فوق أن الأمر بالعبادة استحقاق للربوبية ، ومن أجل سياق المنطق المادي جاء التعبير عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي ، لا بأســلوب المجــاز ؛ لأن الأول ألصق بسياق تعداد النعم المبني على تفرده ــ سبحانه ــ بالربوبية ، و التفرد بالربوبية ظاهر بالنظر في الآيات الحكيمات (الذي خلقكــم) (الذي جعل لكم الأرض فراشا) (و السماء بنــاء) (و أنــزل مــن

السماء ماء) ولم يدع مدع القدرة على مثل هذا ، فالسياق في تعداد النعم ، وليس المراد هنا إثبات البعث حتى يبنيه بالمجاز ، و إنما المراد إثبات الربوبية ، بإثبات التفرد بالقدرة على الإنعام ، فجاء الأسلوب الحقيقي استجابة للسياق الذي أسلفت الحديث عنه ، و لك أن تبصر ذلك وراء هذا القيد (رزقا لكم) وعيدا وتهديدا ، وهو المناسب لمنطق المنافقين المادي ؛ لذا لو قال : فأحيا به من الثمرات ، ما صلح ، ولعل مما يؤيد ذلك أن هذا القيد (رزقا لكم) لم يرد إلا في موضع سورة إبراهيم لتقارب السياقين ، و لما بين ــ سبحانه ــ تفرده بالقدرة على الإنعام ختم الآية بما يناسب ذلك (فلا تجعلوا لله أندادا و أنتم تعلمون) أي :" أنه لا ند له و لا عدل ، و لا لهم نافع و لا ضار و لا خالق و لا رازق سواه " ([1])

و يمكن الاستئناس في فقه السياق بما ذكره البقاعي في هذا الموضع حيث قال : " وما أحسن الأمر بالعبادة حال الاستدلال على استحقاقها بخلق الأولين و الآخرين وما بعده عقب إثبات قدرة الداعي المشيرة إلى الترهيب من سطواته ، و لقد بدع هذا الاستدلال على التفرد بالاستحقاق عقب أحوال من قرب أنهم في غاية الجمود بأمور مشاهدة يصل إليها كل عاقل بأول وهلة من دحو الأرض ، وما بعده مما به قوام بقائهم من السكن و الرزق في سياق منبه على النعمة محذر من سلبها

([1]) جامع البيان البقرة آية ٢٢

دال على الإله . . . و رتبت هذه النعم الدالة على الخـالق الداعيـة إلى شكره أحكم ترتيب ، قدم الإنسان ؛ لأنه أعرف بنفسه ، و النعمة عليـه أدعى للشكر . . . وقد وصف الرب في هذه الآية بموصولين ذكر صـلة الثاني بلفظ الجعل ؛ لأن حال القوام مرتب على حال الخلق ومصير منه، فلا يشك ذو عقل في استحقاق الانقياد لمن تولى خلقه ، و أقام تركيبـه، و لا يشك ذو حس إذا تيقظ من نوم أو غفلة فوجد بساطا قد فرش له، و خيمة قد ضربت عليه ، وعولج له طعام وشراب قدم لـه ، أن نفـسه تنبعث بذاتها لتعظيم من فعل ذلك بها ، و لتقلد نعمته و إكباره ، فلتنزيل هذه الدعوة إلى هذا البيان الذي يضطر إلى الإذعان ، و يـدخل العلـم بمقتضاها في رتبة الضرورة و الوجدان ، كانت هذه الدعوة دعوة عربيـة جارية على مقتضى أحوال العرب ؛ لأن العرب لا تعدو بأنفسها العلـم الضروري ، و ليس من شأنها تكلف الأفكار . . . فعوملت بما جبلـت عليه فتنزل لها لتكون نقلتها من فطرة إلى فطرة ، ومن علم وجـداني إلى علم وجداني على لتحفظ عليها رتبة الإعراب و البيان " ([1])

٢ ــ قال: ــ تعالى ــ (وهو الذي أنزل من السماء فأخرجنا به نبات كل شئ . . .) (الأنعام / ٩٩) يدل تحدر السياق في السورة الكريمـة على أن السياق للدلالة على البعث و التوحيد ، ولو نظرنـا في الآيـات السابقة على الآية الكريمة و الموضحة في الجدول السالف الذكر ، وهـي

([1]) نظم الدرر ١ / ٥٦ ، ٥٧ .

الآيات (٢٩، ٩٨،٩٥،٩٤،٣٦) وكلها في قضية البعث ، كما نـرى في سياق الآية قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع آزر (٧٤:٨٣) وهو مما تفردت به سورة الأنعام ، وهي في التوحيد ،حين نبصر الآية الكريمة لابد أن نبصرها في هذا السياق ؛ لأن ذلك النظر يهدينا إلى سر اصطفاء الأسلوب الحقيقي تعبيرا عن أثر الماء ، و للبقاعي كلمات نادرة في هـذا الباب حين ذكر السر في علة إتباع الحديث عن الزرع بقوله : ـ تعالى ـ (انظروا إلى ثمره . . .) وختم الآية الآتية بعد ذلك في السياق بقوله (كلوا من ثمره إذا أثمر . . .) (الأنعام / ١٤١) وذلك قوله : " ولأجل أن الاشتباه أبلغ من التشابه علق الأمر بالنظر الذي هو أثبت الحواس ودلالة على أن المراد إنما هو ظاهر ذلك ؛ لأنه كان في الدلالة على البعث و التوحيد الذي هذا سياقه ، فقال : (انظروا إلى ثمره) وهذا بخلاف الحرف الثاني ـ يقصد كلوا من ثمره ـ فإنه في سياق الرد على العرب فيما يجعلون من خلقه لأصنامهم التي لا قدرة لها على شيئ أصلا ، و لذلك ختم الآية بالإذن لهم في الأكل منه للانتهاء عما كانوا يحرمونه منه على أنفسهم"([1]) يشير إلى ما سبق الآية الثانية من مثل قوله: تعالى ـ (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث و الأنعام نصيبا . . .) (١٣٦) و الفترة التي نزلت فيها سورة الأنعام من الفترات التي استشرى فيها إنكار البعث .

([1]) نظم الدرر ٢/ ٦٨٧ .

فسياق هذه الآية يقتضي صلاحيتها للأمرين التدليل على البعث ، و التدليل على التوحيد ، ومجيئ أثر الماء بالأسلوب الحقيقي هو الأوفق بالسياق ؛ لأن الآية الكريمة سبقت بأخت لها توفرت على إثبات البعث (إن الله فالق الحب و النوى يخرج الحي من الميت و مخرج الميت من الحي . . .) (الأنعام / ٩٥) و لا نظير لهذه الآية في الذكر الحكيم ، فالتعبير عن الإنبات بالإحياء داخل ضمنا في هذه الآية ؛ لذلك جاءت الآية محل البحث بالأسلوب الحقيقي ؛ إثباتا لكمال القدرة ، كما تدل عليه هيئة بنائها (فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج به حبا متراكبا . . .) فكل حلقة في الإنبات تسلم لأختها في بناء متصاعد يأخذ بالألباب ، من أجل ذلك عقب عليها بقوله (انظروا إلى ثمره إذا أثمر و ينعه . . .) مع أننا لا ننفي أن يكون أثر الماء دالا على البعث ضمنا، لكنه لم يتوفر عليه توفر المجاز كما جاء في سورة البقرة ؛ لذلك قال البقاعي : " السياق لإثبات الوحدانية ، ونفي الشريك بإثبات كمال القدرة التي هي منفية عن غيره " ([1]) و إثبات كمال القدرة من طرائق إثبات التوحيد .

وقال في مناسبة الآية لما قبلها " و لما ذكر وجوه الإبداع التفريعي من هذين الكونين ، و أسباب البقاء له بما ينشأ عنه الفصول وغيره أتبعه سببه القريب ، وهو الماء الذي جعل منه كل شئ ، فقال مفصلا ما أجمله

([1]) نظم الدرر ٢ / ٦٨٦ .

في الحب و النوى سائقا له مساق الإحسان لما قبله من الــدلائل ، فــإن الدليل إذا كان على وجه الإحسان ومذكرا بالإنعام كان تأثيره في القلب عظيما " ([1])

٣ــ قال : تعالى ــ (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يــدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمــرات كــذلك نخــرج المــوتى لعلكــم تــذكرون) (الأعراف / ٥٧) الآية الكريمة سبقت بالحديث عن البعث كما ســبق بيانه في الجدول في الآيات (٢٥ ، ٢٩) كما جاءت الآيــة في ســياق دلائل القدرة (إن ربكم الله الذي خلــق الــسموات و الأرض . . .) (الأعراف / ٥٤) فدل بذلك على أن السياق للربوبية المستحقة العبادة ، و يؤيد ذلك صدر الآية بقوله : (إن ربكم الله . . .) و الآيــة الــتي تليها (ادعوا ربكم . . . / ٥٥) لم يقل : ادعوا إلهكــم ، و الــضمائر الواردة بعد ذلك تعود إلى رب في (ربكم) مثل (إنه لا يحب المعتــدين /٥٥) و (ادعوه خوفا و طمعا / ٥٦) و (وهو الذي يرسل الريــاح / ٥٧) فالأسلوب الحقيقي هو الألصق بسياق الربوبية ، و شئ آخر هو أن إخراج النبات تأثرا بالماء هو مشبه به لمشبه هو إحياء الموتى ، وهو ما ختمت به الآية (كذلك نخرج الموتى) أي : إخراجنا الموتى كإخراجنا النبات ، و لتوافق الطرفين اصطفى هنا أخرجنا بدل أنبتنــا فللتقريــب

([1]) نظم الدرر ٢ / ٦٨٤ .

بالتشبيه قاس ما هو غائب على ما هو حاضر شاهد ، و الأليق بالمشاهد في مثل هذا السياق أن يصاغ بأسلوب التعبير الحقيقي ؛ تأكيدا للدليل .

٤ ـ قال : ـ تعالى ـ (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس و الأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (يونس / ٢٤) الآية الكريمة سبقت بحديث عن البعث كما هو مبين في الجدول الآيات (٤ ، ٢٣) و أتبعت كذلك بحديث عن البعث (٣١ ، ٣٤ ، ٥٦) لكنه ليس حديث إنكار ، و إنما جاءت الآية الكريمة في سياق الحديث عن المغترين بالحياة الدنيا ، الذين لا يعتبرون بما يسوقه الله إليهم من الابتلاء ؛ تنبيها لهم إلى الرجوع إليه الآيات (١٢ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) وقد جاءت الآية في هذا السياق تحقيرا للحياة الدنيا ، و تقليلا لشأنها الذي يستعظمه هؤلاء ، وتوفرت الآية الكريمة على بيان هذا المغزى ، واتخذت التشبيه وسيلة لذلك ، و أريد لهؤلاء أن يعتبروا بالنبات المتأثر بالماء النازل من السماء في سرعة الإنبات وزهوه ، وسرعة هلاكه دون توفر على إثبات البعث أو التوحيد ؛ و لأن الآية مبنية على التشبيه المراد منه الاعتبار كان الأليق به أن يصاغ بالأسلوب الحقيقي ، هذا ولا يخلو الإنبات من الدلالة على

البعث أيضا لكن الدلالة على البعث ليست قضية مركزية في هذا السياق
.

٥ ــ قال : ــ تعالى ــ (الله الذي خلق السموات و الأرض و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . . .) (إبراهيم / ٣٢) جاءت هذه الآية الكريمة في سورة إبراهيم ، ومقصود السورة هو التوحيد ([1]) والطريق الذي اتخذته السورة لإثبات التوحيد هو إثبات كمال القدرة ببيان الامتنان الذي يستوجب الشكر ، وفي سياقها إضاءات ترشد إلى ذلك منها قوله : ــ تعالى ــ (وذكرهم بأيام الله) (إبراهيم / ٥) و لا نظير له في سورة أخرى ، و كذلك قوله : ــ تعالى ــ (و لئن شكرتم لأزيدنكم) (إبراهيم / ٧) وقوله : (جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم) (إبراهيم / ٩)

وقد ذكر البقاعي كلاما جيدا في مناسبة الآية لما قبلها حيث قال : " و لما نفى جميع الأسباب النافعة في الدنيا في ذلك اليوم ، كأنه قيل : فمن الحكم فيه حتى إنه يسير سيرة لا نعرفها ؟ فقيل : الله ، أى : الملك الأعلى المحيط بكل شئ ، ثم أتبعه بصفات تدل على ما دعا إليه الرسل من وحدانيته ، وما أخبروا به من قدرته على كل شئ ، فلا يقدر أحد على مغالبته ، وعلى المعاد ، وعلى غناه فلا يبايع ، فقال : (الذي خلق

([1]) نظم الدرر ٤ / ١٦٥ .

السموات و الأرض) وهما أكبر خلقا منكم ، و أعظم شأنا ، ثم عقبه بأدل الأمور على الإعادة مع ما فيه من عظيم المنة " ([1])

و الخلاصة أن السياق هنا لا عناية له بالبعث،و لا بإثباته ، و إنما جاءت الآية في سياق بيان كمال القدرة المتفردة الموجبة للامتنان المستوجبة للشكر الذي العبادة من طرائقه ؛ لذا سبقت الآية بقوله : (وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله) (إبراهيم / ٣٠) وقوله : (قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة و ينفقوا مما رزقناهم سرا و علانية) (إبراهيم / ٣١) و أتبعت بتعقيب على المنن المذكورة من تسخير الفلك في البحر ، و تسخير الأنهار،والشمس،والقمر،و الليل، و النهار أتبعت بقوله : (و آتاكم من كل ما سألتموه و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (إبراهيم / ٣٤) فكأن السياق لتوحيد الربوبية المستوجب الشكر ؛ لذا جاء بالأسلوب الحقيقي ، و لم يذكر في سياق الآية السابق عليها ، و لا اللاحق لها حديث عن البعث ، و لا إنكار له حتى تكون الآية دليلا على البعث ، فيصاغ التعبير عن أثر الماء بالأسلوب المجازي ؛ تدليلا على البعث ؛ لأنه ليس في السياق ما يرشحه ، و إنما الألصق بالسياق الذي ذكرناه هو الأسلوب الحقيقي .

٦ ــ قال : ــ تعالى ــ (و أرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه و ما أنتم له بخازنين) (الحجر / ٢٢) الحديث

([1]) نظم الدرر ٤ / ١٨٨.

عن البعث في هذه السورة حديث إخبار لاحديث إنكار (و إنـا لـنحن نحيي و نميت ونحن الوارثون) (الحجر / ٢٣) وقد جاءت الآيـة محـل الحث معبرا فيها عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي ؛ تعبيرا عن أثر المـاء في سياق تعداد النعم (و لقد جعلنا في السماء بروجـا / ١٦) (و الأرض مددناها . . . / ١٩) إثباتا لكمال القدرة ، و يؤيده هذه الآية الـتي لا نظير لها في الذكر الحكيم (و إن من شئ إلا عندنا خزائنه و ما ننزلـه إلا بقدر معلوم) (الحجر / ٢١) وكذلك ما جاء بعد الآية من قصة خلـق آدم ـــ عليه السلام ـــ وقد جاء كل ذلك بنون العظمة ؛ إعلاما بالقدرة المطلقة ، على أن هذه الآية تمتاز عن أخواتها بتفردها بذكر أثر الماء علـى هذا النحو (فأسقيناكموه) وفيه من بيان القدرة ما فيه ، وفيـه مـن التحذير ما فيه ، فلا يملك الإنسان أن يخلق ما به الحياة (الماء) وكـل ذلك ؛ إثبات للربوبية بطريق إثبات كمال القدرة اللازم عنـها التفـرد بالإنعام المستوجب الشكر .

وربما نجد تحت كلام البقاعي شيئا مما ذكرناه حيث قال : ـــ في مناسبة الآية لما قبلها ـــ " فلما تم ما أراد من آيـتي الـسماء و الأرض، و ختمه بشمول قدرته لكل شئ أتبعه ما ينشأ عنهما مما هو بينهما مودعا في خزائن قدرته ، فقال : (و أرسلنا) . . . " ([1]) وهذا يؤيد ما ذكرناه من أن السياق لإثبات كمال القدرة وشمولها ، و ليس الـسياق لإثبـات

([1]) نظم الدرر ٤ / ٢١٤ .

البعث ، و إن ذكر عقب الآية ، فليس في السياق ما يلائم المجـــاز حـــتى يذكر هنا.

٧ ـــ قال : ـــ تعالى ـــ (هو الذي أنزل من السماء ماء لكـــم منه شراب و منه شجر فيه تسيمون ينبت لكم بـــه الـــزرع و الزيتـــون و النخيل و الأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) (النحل / ١٠ ، ١١) الآية الكريمة وجدت في سياق دلائـــل القـــدرة، و آيات الإنعام في الآيات (٣:١٦) و الملحوظ أن كل هذه النعم تتعلق بما به قوام الحياة العربية الأنعام و فوائدها في الحل و الترحـــال و الخيـــل والبغال و الحمير ، و الماء و أثره و الليل و النهار و الـــشمس و القمـــر والبحر ، وما فيه من حلى و غيره ، و الفلـــك و الجبـــال وفوائـــدها، والنجوم وفوائدها ، وما ذكر في هذا السياق يشبه أن يكون عناصر حياة العرب كلها ، وفي ذلك مطابقة رائعة لسياق الحال ، و لا يستـــساغ أن يذكر البعث في سياق دلائل القدرة و الإنعام ، و السياق الذي ذكرنـــاه لا يرشح أسلوب المجاز ؛ بيانا لأثر الماء ، و إنما يطلب الأسلوب الحقيقي لأنه هو الملائم لفطر العرب حال النزول ، وهى فطر لا تعرف التكلف في الاستدلال على قدرة الله ، فسياق الحال و المقال اقتضيا سوق أثر المـــاء بالأسلوب الحقيقي ؛ لذا قال الآلوسي : ـــ في مناسبة الآية لما قبلها ـــ "

هو الذي أنزل . . . شروع في نوع آخر من النعم الدالة على توحيده سبحانه " ([1])

وذكر البقاعي أن هذا السياق سياق امتنان حيث قال : " و لما دل على قدرته بما ذكر في سياق الامتنان ، دل على أنها لا تتناهى في ذلك السياق " ([2]) وقال أيضا : ـ في بيان مناسبة الآية محل البحث لما قبلها ـ " و لما كان ما مضى كفيلا ببيان أنه الواحد المختار شرع يوضح ذلك بتفصيل الآيات ؛ إيضاحا يدعه في أتم انكشاف في سياق معدد للنعم مذكر بها داع إلى شكرها ، فقال : . . . هو الذي أنزل " ([3]) ومثل هذا السياق لا يليق به الأسلوب المجازي ، و إنما الألصق به هو الأسلوب الحقيقي .

٨ ـ قال : ـ تعالى ـ (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على شئ مقتدرا) (الكهف / ٤٥) على الرغم من أن هذه الآية مسبوقة بقصة أهل الكهف ، وهى شاهد حق على قدرته ـ سبحانه ـ على البعث إلا أن الآية جاء أثر الماء فيها بالأسلوب الحقيقي ، و ذلك لأمر ظاهر قاهر، هو أن المقصد من الآية ليس إثبات البعث ، و إنما بيان

([1]) روح المعاني ٧ / ٣٤٨ .
([2]) نظم الدرر ٤ / ٢٤٧ .
([3]) نظم الدرر ٤ / ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

قصر مدة الحياة الدنيا ، و قياس مدتها بمدة النبات الذي سرعان ما ينبت و يهلك ، و تعاقب الفاءات في الآية شاهد على ذلك ، و قد جاءت الآية عقب قصة صاحب الجنتين ، الذي غره ما رأى من جنتيه ، فاستبعد قيام الساعة (وما أظن الساعة قائمة . . .) (الكهف / ٣٦) فالمراد من التشبيه بيان سرعة تقضي الحياة الدنيا، فلا بد من قياس ذلك بأمر واقعي مشاهد ، و أسلوب حقيقي واضح تلاؤما مع السياقين المقالي و الحالي .

٩ ــ قال : تعالى ــ (الذي جعل لكم الأرض مهدا و سلك لكم فيها سبلا و أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) (طه / ٥٣) من الواضح من قراءة السياق المقالي أنه يتجه إلى إثبات الربوبية المتفردة ؛ لذا ذكر لفظ (رب) كثيرا في السياق (قالا ربنا إننا نخاف . . . / ٤٥) (إنا رسولا ربك . . . / ٤٧) (قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه . . . / ٥٠) (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي و لا ينسى . . . / ٥٢) و الضمير في الآية محل البحث يعود إلى (ربي) وهو ملائم لحال القصة ؛ لأن فرعون ادعى الربوبية ، و لم يدع الألوهية (فقال أنا ربكم الأعلى) (النازعات / ٢٤) وكأن مؤهلاته الكاذبة في ذلك مؤهلات ربوبية من مثل ما حكاه ربنا (ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) (الزخرف / ٥١) فالسياق لإثبات الربوبية بإثبات

القدرة ، و الملائم لهذا السياق هو عرض الواقع المادي المشاهد بأسلوب حقيقي واضح ، و لو جاء مجازا هنا ما لاءم سياق الحال ، و لا سياق المقال، و لعل مما يؤيد ما ذكرته من أن البعث جاء عقب الآية بطريق الإخبار ، لا ردا لإنكار (منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى) (طه / ٥٥) .

١٠ ــ قال : ــ تعالى ــ (و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج) (الحج / ٥) جاءت الآية الكريمة في سياق إثبات البعث تلاؤما مع مطلع السورة الذي يتحدث عن الساعة ، و قد جاء صدر الآية حديثا عن البعث (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث . . .) (الحج / ٥) واستدل على إثبات البعث بخلق الإنسان ، و ذكرت أطوار خلقة ، ثم جاء الشاهد ؛ ختما للآية الكريمة ، و لعل سؤالا هنا يرد مؤداه : ألم يكن الأليق بهذا السياق إيراد الأسلوب المجازي في البيان عن أثر الماء ؟ و الجواب : أن الأسلوب المجازي لو ورد هنا ما صلح ، و ذلك لأمر ظاهر هو أن قصة الأرض و الإنبات هنا بمثابة المشبه به لمشبه هو إحياء الموتى الذي جاء عقب الآية مباشرة (ذلك بأن الله هو الحق و أنه يحيي الموتى و أنه على كل شئ قدير) (الحج / ٦) و اللائق بالإثبات هنا إيراد المشبه به بأسلوب حقيقي واضح ، حتى يقاس الغائب على الشاهد أحسن قياس ، هذا و قد أثر سياق البعث على اصطفاء الألفاظ حيث قال هنا (هامدة)

و لم يقل خاشعة كما جاء في سورة فصلت (خاشعة) وفي هـــذا قـــال البقاعي : " و لما كان في سياق البعث عبر بما هو أقرب إلى الموت ، فقال : (هامدة) " ([1])

وقال البقاعي : ــ في مناسبة قوله : ــ تعالى ــ (ذلك بأن الله هو الحق و أنه يحيي الموتى و أنه على كل شئ قـــدير) (الحـــج / ٦) " و لما قرر ــ سبحانه ــ هذين الدليلين رتب عليهما ما هـــو المطلـــوب و النتيجة ، فقال على طريق التعليل : (ذلك بأن الله . . .) " ([2]) مـــن أجل هذا السياق ورد التعبير عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي ، فالـــسياق ذو أثر بالغ في اصطفاء الأساليب ، فقد رأينا الألصق بسياق البعث حينا التعبير بالأسلوب الحقيقي ، و أحيانا أخر التعبير بالأسلوب المجازي يكون أليق بإثبات البعث .

١١ ــ قال : ــ تعالى ــ (ألم تر أن الله أنزل من السماء مـــاء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير) (الحج / ٦٣) لمح البقاعي ــ رحمه الله ــ علاقة بين هذه الآية ، و بين قوله ــ تعالى ــ (و الـــذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حـــسنا و إن الله لهو خير الرازقين) (الحج / ٥٨) حيث رأى في الآية محل الشاهد دليلا

([1]) نظم الدرر ٥ / ١٣٤ .
([2]) نظم الدرر ٥ / ١٣٥ .

على قدرته ــ سبحانه ــ على إحيائه للشهداء حيث قال : " و لما دل ما تضمنه رزقه ــ سبحانه ــ للميت في سبيله بقتل أو غيره على إحيائه له ودل ــ سبحانه ــ على ذلك ، وعلى أنه خير الرازقين بماله من العظمة و ختم بهذين الوصفين { يقصد الآيتين ٦١ ، ٦٢ } أتبعه دليلا آخر على ذلك كله بآية مشاهدة جامعة بين العالم العلوي { يقصد السماء } و السفلي { يقصد الأرض } قاضية بعلوه وكبره ، فقال : (ألم تر أن الله أنزل . . . " ([1]) و قال : ــ تعليقا على قوله : ــ تعالى ــ (إن الله لطيف خبير) ــ " أي : مطلع على السرائر ، و إن دقت ، فلا يستبعد عليه إحياء من أراد بعد موته ،و الإحسان في رزقه " ([2]) وكأن أثر الماء جاء بالأسلوب الحقيقي ليثبت ما قبله من إحياء الشهداء ، و يقاس عليه ما جاء بعد الآية من الإحياء و الإماتة (وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم . . .) (الحج / ٦٦) قياسا للغائب على المشاهد المادي الذي جاء بأسلوب حقيقي ، و ذلك أقوى في القياس ، و أنفى للريب ، و مما يؤيد ذلك ما قاله القرطبي : ــ تعليقا على الآية ــ " دليل على كمال قدرته ، أي : من قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت " ([3])

١٢ ــ قال : ــ تعالى ــ (و أنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض و إنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات

([1]) نظم الدرر ٥ / ١٦٩ ، ١٧٠ .

([2]) نظم الدرر ٥ / ١٧٠ .

([3]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي آية الحج ٦٣ .

من نخيل و أعناب . . .) (المؤمنون / ١٨ ، ١٩) جاءت الآية الكريمة في سياق الحديث عن أطوار خلق الإنسان ، ثم الإخبار بالموت ، ثم الإخبار بالبعث (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) (المؤمنون / ١٥) (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) (المؤمنون / ١٦) دون أن يكون هناك ذكر لإنكار البعث ، وجاءت الآية في سياق تعداد دلائل القدرة و الإنعام (و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق . . .) (المؤمنون / ١٧) و الماء و أثره (١٨ : ٢٠) و الأنعام (٢١) و الفلك (٢٢) و لأجل وجود الآية في سياق تعداد دلائل القدرة و الإنعام ، ووقوعها بعد إخبار بالبعث لا إنكار له جاء التعبير عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي ؛ لأنه ألصق بسياق دلائل القدرة و الإنعام ، غير أن التركيب يوحي أيضا بالقدرة على البعث ؛ تمهيدا لما يأتي بعد من إنكاره في سياق الآية اللاحق ، و الذي عرض مقالات السابقين من إنكار البعث (أيعدكم أنكم إذا متم و كنتم ترابا و عظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا وما نحن بمبعوثين) (المؤمنون / ٣٥:٣٧) و قوله : (بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أئذا متنا و كنا ترابا و عظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين) (المؤمنون / ٨١:٨٣) و خلاصة القول أن الآية جاءت في سياق الربوبية المستوجبة للعبادة المأمور بها في صدر السورة (ينظر لذلك الآيات ٢ : ٩) و لعل مما يؤيد ذلك اختصاص الآية بما فيه تهديد ووعيد

بمنع هذه النعم (و إنا على ذهاب به لقادرون) بما لا نظير له في المواطن الأخرى الذكر الحكيم .

١٣ ــ قال : ــ تعالى ــ (أمن خلــق الــسموات و الأرض و أنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكــم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون) (النمل / ٦٠) واضــح أن الآية جاءت في سياق إثبات الألوهية المتفردة(ينظر الآيات ٥٩:٦٥) و لذلك تكرر هذا الاستفهام (آ الله خــير أمــا يــشركون) (٥٩) وختمت الآية بهذا الاستفهام (أءله مــع الله) (٦٠) و تكــرر هــذا السؤال في الآيات (٦١،٦٢، ٦٣ ، ٦٤) تعقيبا على كل اقتدار يذكر لكن صياغة أثر الماء هنا جاءت بأسلوب الحقيقة لبيان قدرته ــ ســبحانه ــ على البعث ، و تفرده بذلك من آكد ما يكون من الحقائق ، كما أن القدرة على الإنبات مما لا ينتطح فيه عنزان ، و شئ آخر ، هو أن الآيــة (٦٤) (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده . . .) يشبه أن تكون مقيسة علــى الآية محل الشاهد ، فكأنها قياس حقائق بحقائق ، وهو أقوى في الاستدلال ، ومما يشير إلى هذا الرابط القوي بين الآيتين أنه قال : ــ عقب الحديث عن البدء و الإعادة ــ (ومن يرزقكم من السماء و الأرض . . .) وهي معلم دال على العقد الكامل بين الآيتين ، و الذي يؤيد ورود الأســلوب الحقيقي تعبيرا عن أثر الماء أن آيات دلائل الألوهية هنا جاءت خالية مــن المجاز تقريبا ، و كأن كل هذه الدلائل رد على الكافرين ، حيث جاء بعد

ذكر الدلائل (و قال الذين كفروا أئذا كنا ترابا و آباؤنا أئنا لمخرجـون لقد وعدنا هذا نحن و آباؤنا من قبل إن هـذا إلا أسـاطير الأولـين) (٦٧ : ٦٨)

وقد رأى البقاعي أن قوله ــ تعالى (أمـن خلـق الـسموات و الأرض) تنبيها بالقدرة على بدء الخلق على القدرة على إعادته " ([١]) وقال بعد ذلك : " و لما كان الإنبات مـن أدل الآيـات علـى إحيـاء الأموات قال : (و أنزل من الـسماء . . .) " كمـا يكـشف عـن اختصاص هذا السياق بقوله : ــ تعالى ــ (ما كـان لكـم أن تنبتـوا شجرها) بقوله : " و لما أثبت الإنبات له نفاه عن غيره على وجه التأكيد ؛ تنبيها على تأكيد اختصاصه بفعله ، و على أنه إن أسند إلى غيره ، فهو مجاز عن التسبيب ، و أن الحقيقة ليست إلا له " وقال أيضا : " و لما ثبت أنه المتفرد بالألوهية حسن موقع الإنكار و التقرير في قوله (أءله مع الله) ([٢]) وقال أيضا في بيان مناسبة قوله ــ تعالى ــ (أمن يبدأ الخلق) " و لما رتب ــ سبحانه ــ هذه الأدلة على هذا الوجه ترقيا من أعم إلى أخص، ومن أرض إلى سماء ختمها بما يعمها و غيرها ؛ إرشادا إلى قياس ما غـاب منها على ما شوهد ، فلزم من ذلك قطعا القدرة على الإعادة ، فـساقها

([١]) نظم الدرر ٥ / ٤٣٧ .

([٢]) نظم الدرر ٥ / ٤٣٨ .

لذلك سياق المشاهد المسلم " ([1]) و سياق المشاهد المسلم بـــه يلائمـــه الأسلوب الحقيقي ، لا الأسلوب المجازي .

١٤ ــ قال : ــ تعالى ــ (خلق السموات بغير عمـــد ترونهـــا و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة و أنزلنا من السماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) (لقمان / ١٠) جاءت الآية في سياق الاستدلال على القدرة ؛ لذا قال البقاعي كاشفا عن مناسبة الآيـــة لما قبلها " و لما ختم بصفتي العزة ، وهي غاية القدرة و الحكمة ، وهـــي ثمرة العلم دل عليهما بإتقان أفعاله و إحكامها ، فقال : (خلق السموات . . .) " ([2]) و مما يؤيد ذلك هذا القيد في ذكـــر خلـــق الـــسموات و الأرض ، و الذي لم يرد في غير هذه السورة (بغير عمـــد) إلا مـــرة واحدة في سورة الرعد ، كذلك الكشف عن مهمـــة الجبـــال في الأرض (و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) و قوله : (أن تميد بكـــم) لم يرد إلا في النحل (١٥) وهي في دلائل القـــدرة ، و الأنبيـــاء (٣١) و الألصق بسياق دلائل القدرة هنا ذكر أثر الماء بالأســـلوب الحقيقـــي، و التعبير عن أثر الماء هنا لم يسبق بحديث عن البعث حتى يكون لذلك أثر في التعبير عن أثر الماء ، و مما يؤيد أن السياق في دلائل القدرة و الامتنان المستوجب الشكر ، ما جاء بعدها (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين

([1]) نظم الدرر ٥ / ٤٣٣ .

([2]) نظم الدرر ٦ / ٩

من دونه . . .) (لقمان / ١١) و قضية الشكر بعد ذلـــك (و لقـــد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه و من كفر فإن الله غني حميد) (لقمان / ١٢) هذا و لم يذكر البعث في السورة إلا في موضع واحد على سبيل الإخبار ضمن دلائل قدرتـــه ـــ ســـبحانه ـــ (ما خلقكم و لا بعثكم إلا كنفس واحدة) (لقمان / ٢٨) بعد بيـــان أن قدرته ـــ سبحانه ـــ لا تتناهى ، فالسياق سياق بيان دلائل القـــدرة، دون أن يكون في السورة خلاف في البعث ، و لا جدل حول قضيته .

١٥ ـــ قال : تعالى ـــ (أولم يروا أنا نـــسوق المـــاء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم و أنفـــسهم أفـــلا يبـــصرون) (السجدة / ٢٧) لم يرد في سياق السورة ذكر للبعـــث إلا في موضـــع واحد منها ، و قد جاء على سبيل الإخبار عقب حكاية قولهم في البعث : (وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقـــاء ربهـــم كافرون) (السجدة / ١٠) فكان أن أمره ـــ سبحانه ـــ بأن يذكر لهم قصة البعث على سبيل الإخبار ، و يسوقها سوق الحقيقة المقررة الـــتي لا جدل في صحة وقوعها (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) (السجدة / ١١) استهتارا بإنكارهم ، وعدم التفـــات إليه ، و قد جاءت الآية محل الشاهد في هذا السياق ، و سيقت سوق ما مضى ، و كأن إنكارهم يكفي في رده الإحالة إلى أقرب شئ واقع أمـــام أعينهم من قصة إنبات الأرض بالماء ، و هذه من طرائق جدال الخصم .

وقد تأول الطبري ــ رحمه الله ــ الآيــة بمــا يربطهــا بــآيتي (١٠ ، ١١) حيث قال : ــ تعليقا عليها ــ " يقول ــ تعالى ذكره ــ أولم ير هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت و النشر بعد الموت و النــشر بعد الفناء أننا بقــدرتنا نــسوق المــاء إلى الأرض اليابــسة . . . " (١) و أوضح منه ما قاله البقاعي ــ حين علق على الاســتفهام المــذكور في صدر الآية (أولم) أي:أيقولون في إنكار البعث (أئذا ضللنا في الأرض) " (٢) و في افتتاح الآية (ير) و اختتامها بــ (أفلا يبصرون) تأكيد على ضرورة استخدام الأسلوب الحقيقي ، لا المجازي ، لأن الرؤية و البصر لا يقعان إلا على حقائق ، لا مجازات .

١٦ ــ قال : ــ تعالى ــ (ألم تر أن الله أنزل من السماء مــاء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) (فاطر / ٢٧) يبدو أن هذه الآية الكريمــة نــاظرة إلى قوله: ــ تعالى ــ(إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور) (فاطر / ٢٢) فجاء التعبير عن أثر الماء هنا بالأسلوب الحقيقــي علــى عكس الآية الماضية ؛ إيذانا بأن من لا مقنع له فيما عرض من الأدلة على البعث لا يكون إلا ميتا ، أو بمثابة الميت ، لذلك جاءت الآية الثانية دالة على البعث بالأسلوب الحقيقي ؛عدم اكتراث بهؤلاء المــوتى الــذين لا

---

(١) جامع البيان للطبري آية السجدة ٢٧.

(٢) نظم الدرر ٦ / ٦٤ .

يسمعون ، و لا يبصرون ؛ لذا جاء عقبها (إنما يخشى الله مـــن عبـــاده العلماء) (فاطر / ٢٨) و لم يرد هذا التعبير في سورة أخـــرى ، أمـــا الجهلاء فهم أموات لا يلتفت إليهم .

وقد جاءت الآية أيضا في سياق قوله : (و إن يكـــذبوك فقـــد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات و بالزبر و بالكتاب المنير) (فاطر / ٢٥) فقد جاءت على طريقة إهمال هؤلاء الذين لا تحـــدى معهم بينات ، و لا براهين ، هذا، و مما اختصت به هذه الآية التفصيل في اختلاف أثر الماء ، وكذلك الاختلاف في ألوان الجبال و الناس و الأنعام على الرغم من صدور الكل عن الواحد ــ سبحانه ــ و الذي أبصره أن التركيز على الاختلاف في المحسوسات تلك يقـــاس عليـــه اخـــتلاف في الانتفاع بالكتاب على الرغم من كونه واحدا ، وهو مما اختـــصت بـــه السورة أيضا (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنـــهم ظـــالم لنفسه ومنهم مقتـــصد و منـــهم ســـابق بـــالخيرات بـــإذن الله . . .) (فاطر/٣٢) وهو ما ألمع البقاعي إليه بقوله تعليقا علـــى قولـــه : ـــــ (مختلفا ألوانها) " أى ألوان أنواعها و أصنافها و هيئاتها وطبائعها فالـــذي قدر على المفاوتة بينها ، وهى من ماء واحد لا يستبعد عليـــه أن يجعـــل الدلائل بالكتاب وغيره نورا لشخص وعمى لآخر " ([1]) وهذا تـــصوير

([1]) نظم الدرر ٦ / ٢٢٠ .

لتفرده ـــ سبحانه ـــ بالقدرة على خلق الأضداد من الشئ الواحـــد،و لا يقدر على مثل ذلك إلا من اتصف بالألوهية المتفردة .

١٧ ـــ قال : ـــ تعالى ـــ (ألم تر أن الله أنزل من السماء مـــاء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهـــيج فتـــراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب)(الزمر / ٢١) جاءت الآية الكريمة دالة على القدرة على البعث في سياق دلائل القدرة المتفردة ؛ توجيها للخلق إلى العبادة الخالصة ، و نفي الشريك و الولـــد عن الله ـــ سبحانه ـــ وقد ذكر البقاعي مناسبة الآية لما قبلها ، فقال : " وكما أخبر ـــ سبحانه ـــ بقدرته على البعث دل عليهـــا بمـــا يتكـــرر مشاهدته من مثلها ، وخص المصطفى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بقدرته على البعث { يشير إلى قوله ـــ تعالى ـــ وعد الله لا يخلف الله الميعـــاد} دل عليها بما يتكرر مشاهدته من مثلها ، وخص المصطفى ـــ صـــلى الله عليه و سلم ـــ بالخطاب ؛ حثا على تأمل هذا الدليل ؛ تنبيها على عظمته ، فقال : ـــ مقدرا ـــ (ألم تر . . .) " ([1]) وقد اختص هذا الموضع دون سواه بـــ (ثم) وفيه " تنبيه على تعظيم الأمر فيما تلاها بأنه محل الشاهد " ([2]) وقد ذكر أن الآية جاءت في سياق القدرة التامة بقولـــه : " و لمـــا كان السياق لإظهار القدرة التامة عبر بالجعل مسندا إليه ـــ ســـبحانه ـــ

([1]) نظم الدرر ٦ / ٤٣٥ ، ٤٣٦ .
([2]) نظم الدرر ٦ / ٤٣٦ .

بخلاف آية الحديد التي عبر فيها بالكون " ([1]) هذا ، ومما يؤيد مجيئ الأسلوب الحقيقي تعبيرا عن أثر الماء فوق ورود الآية في سياق دلائل القدرة ، أنه لم يسبق الآية في السياق خلاف في قضية البعث ، ولا إنكار لها صراحة ، و إنما جاءت الآية فقط لتأكيد صدق وعد الله المؤمنين في الآخرة ، فليس في السياق ما يدعو إلى النظر إلى قضية الإنبات من منظور البعث دون غيره ، وقد نبه القرطبي إلى أن الآية فيها دلالة على البعث حيث قال : ــ تعليقا على الآية ــ " أى : أنه لا يخلف الميعاد في إحياء الخلق ، و التمييز بين المؤمن و الكافر ، وهو قادر على ذلك ، كما أنه قادر على إنزال الماء من السماء " ([2])

١٨ ــ قال : ــ تعالى ــ (ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات و حب الحصيد و النخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد و أحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) (ق / ٩ : ١١) تمتاز هذه الآية عن نظائرها بأن جمعت الأسلوبين في التعبير عن أثر الماء ، وقد جاء الحقيقي أولا (فأنبتنا) وجاء المجازي بعد ذلك عطفا على الحقيقي (و أحيينا) و التركيب يرشدنا إلى مهمة كل أسلوب منهما في البيان، فالتعبير الحقيقي يتظاهر على بيان القدرة على الإنعام ؛ و لذلك ذكر هذا

([1]) نظم الدرر ٦ / ٤٣٦ .

([2]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي آية الزمر ٢١.

القيد (رزقا) و المجازي يتظاهر على بيان القدرة على البعث ، فوقع الأسلوب المجازي مشبها به لمشبه هو (كذلك الخروج) .

هذا ، و قد سبقت الآية بحكاية إنكار البعث (أئذا متنا و كنا ترابا ذلك رجع بعيد) (ق / ٣) فجاء الأسلوب الحقيقي أولا في سياق القدرة المتفردة على الإنعام ؛ تهديدا لهؤلاء المنكرين ، ثم ثنى بالأسلوب المجازي رذا لاستبعادهم البعث ، ثم اتخذ السياق بعد ذلك وسائل أخرى لإظهار قدرته ــ سبحانه ــ على البعث و الحساب من ذكر أحوال السابقين ، ثم عاد إلى ذكر البعث مرة ثانية بأسلوب هو من خصائص السورة الكريمة ، حيث لم يذكر في غيرها من سور الذكر الحكيم (ذلك يوم الخروج) و كأن الخروج هو قصة السورة ؛ لذا قال البقاعي في تحديد مقصودها " مقصودها تصديق النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ في الرسالة التي معظمها الإنذار ، و أعظمه الإعلام بيوم الخروج بالدلالة على ذلك بعد الآيات المسموعة الغنية بإعجازها عن تأييد بالآيات المرئية الدالة قطعا " ([1])

هذا ، و قد نبه البقاعي إلى هذا القيد (رزقا) فقال : " و لما ذكر ــ سبحانه ــ بعض ماله في الماء من العظمة ذكر له علة هي غاية في المنة على الخلق ، فقال : (رزقا للعباد) أى : أنبتنا به ذلك لأجل أنه

([1]) نظم الدرر ٧ / ٢٤٣ .

بعض ما جعلناه رزقهم " وقال في أسلوب المجاز : " و لما كان ذلك من أعظم مذكر للبصراء بالبعث ، و لجميع صفات الكمال ، و أتبعه ماله من التذكير بالبعث بخصوصه فقال : (و أحيينا . . .) . . . و لما كان هذا خاصة من أوضح أدلة البعث قال على سبيل النتيجة (كذلك . . .) أى : مثل هذا الإخراج العظيم " ([1]) كأن هذا الموطن أرشدنا إلى فقه سياق الأسلوب الحقيقي ، و الأسلوب المجازي تعبيرا عن أثر الماء في الذكر الحكيم ، فلله الحمد على ما منّ و أعطى ، و قد أوردنا هذا الموطن في سياق الأسلوب الحقيقي ؛ أخذا بما جاء أولا .

١٩ ــ قال : تعالى ــ (و أنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا و نباتا و جنات ألفافا) (النبأ / ١٤ : ١٦) جاءت الآية الكريمة في سياق الحديث عن البعث المسمى هنا النبأ العظيم ، و دارت محاور السورة على أن هذا الذي اختلفوا فيه ثابت ، و قد حدد البقاعي مقصود السورة قائلا : " مقصودها : الدلالة على أن يوم القيامة الذي كانوا مجمعين على نفيه ، و صاروا بعد بعث النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ في خلاف فيه مع المؤمنين ثابت ثباتا لا يحتمل شكا ، و لا خلافا بوجه " ([2]) وقد لحظ القرطبي هذا السياق ، فقال : ــ عند قوله ــ تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا) (النبأ / ٦) " أى : قدرتنا على إيجاد

([1]) نظم الدرر ٧ / ٢٥٢ .
([2]) نظم الدرر ٨ / ٢٩٤ .

هذه الأمور أعظم من قدرتنا على الإعادة " ([1]) وقد جـــاءت الآيـــات السابقة على محل الشاهد دليلا على البعث (و جعلنـــا نـــومكم ســـباتا و جعلنا الليل لباسا و جعلنا النهار معاشا) (النبأ / ٩ : ١١) فـــالنوم و اليقظة شبيه بهما الإماتة و الإحياء ، وجاء الإنبات بعد ذلـــك دلـــيلا أقوى و أظهر على البعث ، وهذه طريقة في الترقي في الاستدلال ؛ لذلك جاء عقب الآية قوله : ـــ تعالى ـــ (إن يوم الفصل كان ميقاتا يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) (النبأ / ١٧ ، ١٨) ؛ إشعارا بأن ما سبق من الدليل على البعث كاف في الإيمان به ، و العمل له ، و إنما جاء التعـــبير عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي ؛ إشارة إلى مثل هذا الدليل أظهر من أن ينص عليه دليل بعث ؛ قياسا على ما مضى من الأدلة ، وهـــذا عـــرض لقضية البعث عرض ما لا خلاف فيه ؛ اســـتهتارا بتكذيبـــهم ، وعـــدم التفات إليه ، و كأن ما ذكر من افتتاح السورة إلى قوله:(إن يوم الفصل كان ميقاتا) (النبأ / ١٧) إنما كان للرد على اختلافهم حول يوم الفصل الذي هو النبأ العظيم ؛ لذلك قال البقاعي : ـــ منبـــها علـــى مناســـبة (إن يوم الفصل . . .) لما قبله ـــ " و لما ذكر ما دل على غاية القدرة، و نهاية الحكمة ، فدل قطعا على الوحدانية ؛ لأنه لو كان التعدد لم تكـــن الحكمة ، و لم تتم القدرة ، فأثمر المحبة لمن اتصف بذلك ، فأنتج للطـــائع الشوق إلى لقائه و الترامي إلى مطالعة كمال نعمائه ، و للعاصي ما هـــو حقيق به من الخوف من لقائه ليرده ذلك عن إعراضه و إبائه ، أتبعه مـــا

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي النبأ آية ٦ .

أعلم أنه ما ذكره إلا للدلالة على النبأ العظيم في لقاء العزيز الـــرحيم ، فقال منتجا عما مضى من الوعيد ، وما دل على تمام القـــدرة مؤكـــدا لأجل إنكارهم (إن يوم الفصل) أى : الذي هو النبأ العظيم " ([١])

٢٠ ــ قال : ــ تعالى ــ (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا . . .) (عبس /٢٤:٣٢) يعد هذا الموضع أول المواضع التي ندرسها نزولا ؛ لذلك جـــاء موافقـــا للحال وقتها من عرض الدليل بأسلوب محدد حقيقي ، لا بأسلوب مجازي ؛ هذا ، و ليس في السياق إنكار للبعث ، و لكن جاء بطريق الإخبـــار، ووقع الماء و أثره بين حـــديثين عـــن البعـــث (ثم إذا شـــاء أنـــشره) (عبس/٢٢) و (فإذا جاءت الصاخة) (عبس / ٣٣) و سيق الدليل معرى عن التأكيد بالمجاز ؛ إلماعا إلى قوة الدليل ، وإظهارا لغناء البعـــث عن دليل لإثباته لمن عنده أدنى تأمل لما تقوم به حياته من أثر الماء .

كما يتلاءم هذا مع موقع السورة من الكتاب العزيز حيث إنهـــا آخر السور حديثا عن هذا الأمر ، وقد تكاثرت الأدلة على البعث مـــن أول المصحف الشريف إلى هذا الموضع فهى الثمانون في ترتيب المصحف الشريف ، هذا ، و يرى الزمخشري أن الآية مسوقة في الامتنـــان علـــى

([١]) نظم الدرر ٨ / ٣٣٠.

الإنسان بمطعمه و استدعاء شكره " [١] و الامتنان يلائمـــه الأســـلوب الحقيقي ، لا الأسلوب المجازي ، و يؤيده هذا التفصيل المستفيض لأثـــر الماء وخيراته ، ويرى ابن كثير أن الآية مسوقة في الامتنان ، و أن فيهـــا استدلالا بالبعث ضمنا حيث قال ــ تعليقا علـــى قولـــه ــ تعـــالى ــ (فلينظر الإنسان. . .) " فيه امتنان ، و فيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاما بالية و ترابا ممزقا " [٢] و قال البقاعي ــ كاشفا عن مناسبة (فلينظر . . .) إلى ما قبلـــه ــ " و لما ردعه بعد تفصيل ماله في نفسه من الآيات ، و أشار إلى مالـــه من النقائص شرع يقيم الدليل على تقصيره بأنه لا يقدر على شكر نعمة المنعم فيما له من المطعم الذي به قوامه ، فكيف بغيرها في أســـلوب دال على الإنشار بآيات الآفاق منبه على سائر النعم في مدة بقائـــه المـــستلزم لدوام احتياجه إلى ربه ، فقال مسببا عن ذلك (فلينظر . . .) " [٣]

---

(١) الكشاف ٤ / ٢٢٠ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٧٢ .
(٣) نظم الدرر ٨ / ٣٣٠ .

ثانيا : الأسلوب المجازي

١ ــ قال : ــ تعــالى ــ (إن في خلــق الــسموات والأرض واختلاف الليل و النهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بث من كل دابة و تصريف الرياح و السحاب المسخر بــين السماء و الأرض لآيات لقوم يعقلون) (البقرة / ١٦٤) وقعت الآيــة الكريمة عقب قوله : ــ تعالى ــ (و إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) (البقرة / ١٦٣) ووقوعها بعد آية التفرد بالألوهيــة ، هــو الذي جعل اصطفاء أسلوب المجاز ألصق بالسياق ؛ لأنه يدل على التفرد ، إذ لم يدع الإحياء مدع ، و ربما يؤيد ذلك ما ذكره الطبري من ســبب نزول هذه الآية " قال بعضهم أنزلها عليه احتجاجا له على أهل الــشرك به من عبدة الأوثان ، و ذلك أن الله ــ تعالى ذكره ــ لما أنزل على نبيه محمد ــ صلى الله عليه و سلم ــ (و إلهكم . . .) فتلا ذلــك علــى أصحابه ، و سمع به المشركون من عبدة الأوثان ، قال المشركون : و مــا الحجة و البرهان على أن ذلك كذلك ، ونحن ننكر ذلك ، و نحن نــزعم أن لنا آلهة كثيرة ؟ فأنزل الله عند ذلك (إن في خلق . . .) " ([1])

هذا ، و قد ذكر البقاعي كلاما جيدا في الــسياق ، فقــال ــ مشيرا إلى قوله ــ تعالى ــ (و ما أنزل الله من السماء . . .) " فكان في

([1]) جامع البيان للطبري آية ١٦٤ البقرة

هذه التوطئة توجيه الخلق إلى الإله الذي ينزل الماء من السماء هو الله الذي لم يشرك به أحد سواه ليكون ذلك توطئة لتوحيد الإله ، و لذلك ذكر ـــ تعالى ـــ آية الإلهية التي هي الإحياء " ([1]) ؛ لذلك تأول البقاعي ختم الآية بما يلائم سياقها (لآيات لقوم يعقلون) حيث قال : " أى : فيعلمون أن مصرف هذه الأمور على هذه الكيفيات المختلفة و الوجوه المحكمة فاعل مختار ، وهو قادر بما يشاهد من إحياء الأرض وغيرها ، مما هو أكبر منه على بعث الموتى وغيره مما يريده ، و أنه مع ذلك كله واحد لا شريك له " ([2])

أضف إلى ما قيل في سياق المقال ما قيل في سياق الحال ترى أنه لا يجوز أن يعبر هاهنا إلا بأسلوب المجاز ، و إذا ما اتسع نظرنا في السياق رأينا أن السياق الذي أحاط بالآية من بين يديها و من خلفها أولى قضية البعث في هذه السورة ؛ اهتماما بالغا (كيف تكفرون بالله و كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم . . .) (البقرة / ٢٨) و قصة اليهود الذين أخذهم الصعقة ، ثم بعثهم الله من بعد ذلك (البقرة/ ٥٥ ، ٥٦) و قصة البقرة (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى و يريكم آياته لعلكم تعقلون) (البقرة / ٧٣) و لعل في ختم هذه الآية بـــ (لعلكم تعقلون) ؛ إشارة إلى عقد الآية محل البحث بها لاتفاقهما في

([1]) نظم الدرر ١ / ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

([2]) نظم الدرر ١ / ٢٩٨ .

الخاتمة ، و يبقى القول أن ما ذكر قبل الآية من قصص البحث لا يتيسر رؤيته للكل ، و إنما هو مختص بمن عاصر هذه القصص ، و رآها، فجاءت هذه الآية ؛ دليلا مشاهدا للكل ، و مستمرا في كل وقت آية على الألوهية و الوحدانية ، ومما يؤيد ذلك أننا نرى إحياء الموتى مسندا إلى الله دائما ؛ لذلك لم يقل هنا : كذلك يحيي ربكم الموتى ، و لا في الذي جاء بعد الآية الكريمة من مواطن قصص إحياء الموتى ، خذ من ذلك (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم . . .) (البقرة / ٢٤٣) (أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه . . .) (البقرة/٢٥٩) وقصة الأطيار ختمت بقوله : (واعلم أن الله عزيز حكيم) (البقرة/٢٦٠) على الرغم من أن طلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان بصفة الربوبية (و إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى . . .) و تبقى الآية (١٦٤) دليلا مشاهدا و مستمرا على قدرة الله على الإحياء ، وهو دليل لا ينتطح فيه عنزان ، كما يقولون ، غير ما أحاط بالآية من بين يديها و من خلفها من قصص البعث من حيث عمومها و تجددها و استمرارها من أجل كل ذلك كان أسلوب المجاز ألصق بهذا السياق .

٢ ـ قال : ـ تعالى ـ (و الله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) (النحل /٦٥) جاءت هذه الآية امتدادا لأختها (١٠ ، ١١) التي جاء التعبير عن أثر

الماء فيها بالأسلوب الحقيقي ، وكانت عناية الأولى بإثبات الربوبية، و طريق الإثبات كان بإثبات كمال القدرة على الإنعام ، ثم جاء ذكر للبعث بعد ذلك ، و السياق مفعم بالجدل ، كما دل عليه قوله : ــ تعالى ــ (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) (النحل/٩٤) وجاء ذكر البعث في الآيات (١٧ : ٢١) و كأن الآية محل الشاهد رد على قسمهم ــ فيما حكاه ربنا ــ (و أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) (النحل / ٣٨) و بيان لما اختلفوا فيه، و رأس الاختلاف كان في الإلهيات ، فجاءت الآية في هذا السياق الممتد؛ إثباتا للألوهية بالدليل المادي المشاهد ، و ما أجمل قول البقاعي كشفا عن السياق المقتضي أسلوب المجاز تعبيرا عن أثر الماء فقد قال : ــ كاشفا عن مناسبة الآية سياقها ــ " و لما انقضى الدليل على أن قلوبهم منكرة استكبارا ، وما يتعلق به ، و ختمه بما أحيا به القلوب بالإيمان و العلم بعد موتها بالكفر و الجهل ، و كان المقصود الأعظم من القرآن تقرير أصول أربعة : الإلهيات ، و النبوات ، و المعاد ، و إثبات القضاء و القدر . . . وكان أجل هذه المقاصد الإلهيات شرع في أدلة الوحدانية و القدرة و الفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم، ليعلم أن أدلة ذلك أكثر من أوراق الأشجار ، و أجلى من ضياء النهار" ([1]) وبعد عرض هذا السياق تبين لنا أن التعبير عن أثر الماء بالمجاز هو مطلب سياقي المقال و الحال .

([1]) نظم الدرر ٤ / ٢٨٣.

٣ ــ قال : ــ تعالى ــ وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته و أنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا و نسقيه مما خلقنا أنعاما و أناسي كثيرا) (الفرقان / ٤٨ ، ٤٩) ألمح البقاعي إلى أن الآية موضع الشاهد ، جاءت ترقيا في الاستدلال على البعث ، حيث لمح دلالة على البعث في قوله : ــ تعالى ــ (و جعل النهار نشورا) (الفرقان / ٤٧) فقال : " أى : حياة و حركة و تقلبا بما أوجد فيه من اليقظة المذكرة بالبعث المهيئة للتقلب برد ما أعدمه النوم من جميع الحواس " ثم قال : ــ كاشفا عن مناسبة ما بعدها لها ــ " وكما دل على عظمته بتصرفه في المعاني بلإيجاد و الإعدام ، و ختمه بالإماتة و الإحياء بأسباب قريبة { يقصد النوم و اليقظة } أتبعه التصرف في الأعيان بمثل ذلك، دالا على الإماتة و الإحياء بأسباب بعيدة " ثم قال بعد ذلك " و لما كانت هذه الأفعال دالة على البعث لكن بنوع خفاء ، أتبعها ثمرة هذا الفعل ؛ دليلا واضحا على ذلك ، فقال معبرا بالإحياء لذلك " ثم علق على التركيب (لنحيي به بلدة ميتا) بقوله : " أى : بما تحدث فيه من النبات بعد أن كان قد صار هشيما ، ثم ترابا ؛ ليكون ذلك آية بينة على قدرتنا على بعث الموتى بعد كونهم ترابا " ثم قال معللا لوجود (و نسقيه) " و لما كان في مقام العظمة بإظهار القدرة زاد على كونه آية على البعث بإظهار النبات الذي هو منفعة للرعي منفعة أخرى عظيمة الجدوى في

الحفظ من الموت بالشرب لما كانت آية الإحياء حافظة بالأكل ، فقـــال : (و نسقيه) " ([1])

و الظاهر من هذا السياق أن الآية في سياق إثبـــات الألوهيـــة، وكأنها تنادي على قوله : ـــ تعالى ـــ في أول السورة (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون و لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضـــرا و لا يملكون موتا و لا حياة و لا نشورا) (الفرقان / ٣) فجاءت الأدلة على طريق الترقي من الأقرب إلى الأبعد ؛ استدلالا على اختـــصاصه ـــ سبحانه ـــ بالقدرة على الموت و الحياة و النشور ، و لعل مما يؤيد ذلـــك أنه جاء بعد الآية (و لو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا)(الفرقان / ٥١) و الإنذار و البعث أليق بالألوهية ، و جاء بعد ذلك أيضا (و يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم و لا يضرهم . . .) (الفرقان / ٥٥) وجاء بعـــد ذلك (و توكل على الحي الذي لا يموت . . .) (الفرقان / ٥٨) و لا نظير له في الذكر الحكيم ، فكأن سوق الأدلة على البعث جاء ردا علـــى معتقدهم في آلهتهم ، كما حكي عنهم في صدر السورة ؛ و بيانا لفـــساد عقيدهم في ذلك ؛ لذلك عاد إلى القضية في الآية (٥٥ ، ٥٨) ليـــدل على أن ما ذكر بين الآية (٣) و الآية (٥٨) يسير في اتجـــاه إثبـــات التفرد بالألوهية ، فالأليق بإثبات الألوهية ، و ذكر الإنذار المـــذكور في

([1]) نظم الدرر ٥ / ٣٢٤ : ٣٢٦ .

صدر السورة بما لا نظير له في الذكر الحكيم في الآيات (٧ ، ٨ ، ٢٠) و قد ذكر في سياق السورة مطالب الكافرين التي تعكس عدم تصديقهم بالرسول ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ من مثل (و قالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . . .) (الفرقان/ ٣٢) .

٤ ـــ قال : تعالى ـــ (و لئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) (العنكبوت / ٦٣) هذه الآية الكريمة جاءت إثباتا لقوله : ـــ تعالى ـــ (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير) (العنكبوت / ١٩،٢٠) فجاءت الآية محل الشاهد مخاطبة إياهم خطاب المنكر البعث ، كما يشير إلى الاستفهام، و الإحالة على الرؤية في الآيتين الأوليين ، و قد اتبع القرآن الكريم أسلوب الترقي ، فجاء قبل الآية محل الشاهد (و لئن سألتهم من خلق السموات و الأرض و سخر الشمس و القمر ليقولن الله . .) (العنكبوت / ٦١) وقد بين البقاعي ـــ رحمه الله ـــ مناسبة هذه الآية لما قبلها فقال : " و لما كان حالهم في إنكار البعث حال من ينكر أن يكون ـــ سبحانه ـــ خلق هذا الوجود أكد ؛ تنبيها على أن الاعتراف بذلك يلزم منه قطعا الاعتراف بالبعث ،فقال : (ليقولن الله) " ([١]) وقد جاءت

([١]) نظم الدرر ٥ / ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

الآية محل الشاهد ؛ ترقيا في الاستدلال على البعث ، وفيه إثبات للألوهية المتفردة ، كما جاء في الآية الأولى (ليقولن الله) وقد جاء التعبير عن أثر الماء فيها بالأسلوب المجازي ؛ لأن به يتحقق اللفت القوي إلى هذا الدليل القوي المشاهد، و المتكرر، و المستمر في الوجود الذي به قوام حياتهم، بل لا حياة لهم بدونه ، و ذكر (فأحيا) هنا ذو أثر قوي في لفت الانتباه لمثل هذا الدليل ؛ لأنه مخالف للمعتاد (فأنبت) ودائما ما جاء على غير المعتاد كان أقوى في إثارة الانتباه ، فكان الأوفق بالسياق ذكر أثر الماء بأسلوب المجاز لما في السياق من إنكار للبعث كما سبق بيانه .

٥ ــ قال : ــ تعالى ــ (ومن آياته يريكم البرق خوفا و طمعا و ينزل من السماء ما ء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (الروم / ٢٤) هذه السورة الكريمة مليئة بالاستدلال على البعث (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون) (الروم / ١١) (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) (الروم / ١٧) (يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون) (الروم / ١٩) فالآية الأولى إخبار بقدرة الله على الخلق و الإعادة ، و الثانية دليل على ذلك بالنوم المشبه الموت ، و اليقظة المشبهة النشور ، ثم ترقى في الاستدلال فذكر إخراج الحي من الميت، و إخراج الميت من الحي ، وهو بدء و إعادة ، ثم ذكر إحياء الأرض بعد موتها ، وهو ما لا يكون إلا بالماء ، ثم جعل ذلك مشبها به لمشبه هو

الإخراج (و كذلك تخرجون) ثم عاد إلى الاستدلال بالخلق الأول مـــن (ومن آياته أن خلقكم من تراب . . .) (الروم / ٢٠) و التراب مـــن الأرض التي سبق الحديث عن إحيائها ، ثم عاد إلى الدليل المذكور قبـــل ذلك (فسبحان الله حين تمسون . . .) (الروم / ١٧) بطريق أوضـــح (ومن آياته على البعث منامكم بالليل و النهار و ابتغاؤكم من فضله) (الروم / ٢٣) و لما كان كل ما مضى في الاستدلال على البعث يمكـــن أن تستند أسبابه إلى غير الله ــ (تمسون ــ تــصبحون ــ منـــامكم ــ ابتغاؤكم) لما كان الأمر كذلك جاء بالدليل الأقوى ، و نص على أنه لا يملكه أحد سواه (و ينزل من السماء) وجـــاء أثـــره بأســـلوب المجـــاز (فيحيي) لفتا إلى قوة هذا الدليل على البعث في هذا الـــسياق الـــذي احتشدت فيه الأدلة على البعث ، و ختمت بأقواها ؛ إثباتـــا للألوهيـــة المتفردة ، ثم بين عقبها أن البعث يكون عن قول (كن) (و من آياته أن تقوم السماء و الأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة مـــن الأرض إذا أنـــتم تخرجون) (الروم / ٢٥) و لقوة ما مضى من الاستدلال عاد الـــسياق إلى ما ذكره في الآية (الله يبدأ الخلق ثم يعيده . . .) (الروم / ١١) ؛ إشارة إلى ترابط الأدلة وترقيها في الاستدلال على البعـــث ، و إثبـــات إمكانه (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (الروم / ٢٧) تنبيها إلى قوة ما مضى من الأدلة ، و الذي كـــان أقواهـــا ، و أجلاهـــا للريب الآية محل الشاهد ؛ لذلك لم نجد في الذكر الحكيم كلـــه (وهـــو أهون عليه) في غير هذا الموضع ، فمن أجل ذلك كله جاء التعبير عـــن

أثر الماء بالأسلوب المجازي ؛ لفتا إلى قوة الدليل ووضوحه ، و ذلك غير السياقات التي لم يجر فيها حديث عن البعث بالهيئة التي ذكرناها ، و التي ورد فيها التعبير عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي .

٦ ــ قال : ــ تعالى ــ (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء و يجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون و إن كانوا من قبل أن يتزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موهّا إن ذلك لمحيي الموتى إنه على كل شئ قدير) (الروم / ٤٨ : ٥٠) الآية السابقة و سياقها سياق لهذه الآية الكريمة، وكأن قضية البعث هى قضية هذه السورة في إثبات البعث حيث يأتي الدليل أو الحديث عن البعث ، ثم يمضي السياق ، ثم يعود مرة أخرى إلى البعث ؛ لذلك قال البقاعي في تحديد مقصودها " مقصودها إثبات الأمر كله فتأتي الوحدانية و القدرة على كل شئ ، فيأتي البعث ، ونصر أوليائه وخذلان أعدائه " ([1]) و قد جاءت هذه الآية ؛ تأكيدا لأمر البعث، و تصريحا به كما يفهم من كلام البقاعي ([2]) و لعله يشير بذلك إلى قوله ــ تعالى ــ (إن ذلك لمحيي الموتى) و قد جاء قبل الآية (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من

([1]) نظم الدرر ٥ / ٥٨٢ .

([2]) ينظر نظم الدرر ٥ / ٦٣٨ .

ذلكم من شئ) (الروم / ٤٠) وجاءت الآية محل الشاهد بعده؛ تأكيدا للبعث بالدليل المشاهد ، و الفرق بين الآية محل الشاهد، و الآية (٢٤) أن الأولى موجزة مختصرة لم يتسع فيها وصف حال الناس حين انتظار الماء ، أما هنا فالتفصيل أكثر في حركة الرياح ، و إثارة السحاب ، و ظهور البرق من خلاله ، وحال فرح الناس حين نزول الماء ، وحالهم الذي كانوا عليه قبل نزول المطر من اليأس و القنوط ، وجاء في هذه الآية قياس إحياء الموتى بإحياء الأرض ، وهو مما لم يكن في الآية السابقة (كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) ثم إن اللفت هنا لفقه الدليل أقوى منه في الآية الأولى حيث قال هنا (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) ثم عقب بما يناسب حال الإنكار (إن ذلك لمحيي الموتى) حيث اشتملت على أكثر من مؤكدين (إن ــ اللام ــ اسمية الجملة) وهو ترق في الاستدلال بعد الترقي الأول في الآية السابقة ،وكان هذا السياق مقتضيا سوق أثر الماء بالأسلوب المجازي ؛ لفتا إلى قوة الاستدلال على البعث ؛ تناسبا مع حال الإنكار التي ظهرت في السياق المقالي للآية الكريمة، و لأجل قوة هذا الدليل جاء بعده (فإنك لا تسمع الموتى و لا تسمع الصم الدعاء) (الروم / ٥٢) أي : من لا يقتنع بهذا الدليل هو بمثابة الميت الأصم .

٧ ــ قال : ــ تعالى ــ (و الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور)

(فاطر / ٩) الظاهر أن السياق يوحي بالاتجاه نحـــو إثبـــات الألوهيـــة؛ و لذلك في الآيات الثمانية قبل الآية محل الشاهد ورد ذكـــر اســـم الله صراحة عشر مرات ، و فيها عدة مـــواطن للاهتمـــام بإثبـــات التفـــرد بالألوهية (جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى و ثلاث و رباع يزيـــد في الخلق ما يشاء . . .) (فاطر/١) و (ما يفتح الله للناس من رحمة فـــلا ممسك لها و ما يمسك فلا مرسل له من بعده . . .) (فاطر / ٢) و (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء و الأرض لا إلـــه إلا هـــو . . .) (فاطر / ٣) وقد جاءت الآية دالة على البعث حيث جاء إحياء الأرض بالماء مشبها به للنشور ؛ لفتا إلى النظر إلى قصة الإنبات من منظور البعث ؛ إيماء للاهتمام بهذا الدليل القوي ، و في إثبات البعث إثبات للألوهيـــة بأسلوب المجاز الذي يلائم سياق السورة ، و قد بين البقـــاعي أن الآيـــة جاءت ؛ بيانا لقدرته ــ سبحانه ــ على ما وعد به ([1]) يقصد الإشـــارة إلى قوله: ــ تعالى ــ (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحيـــاة الدنيا . . .) (فاطر / ٥) و مما يؤيد أن السياق للألوهية قوله ــ تعالى ــ بعد ذلك (ذلكم الله ربكم له الملك و الذين تدعون من دونـــه مـــا يملكون من قطمير) (فاطر / ١٣) و قد كان البقاعي ــ رحمـــه الله ــ نافذ البصيرة حين ذكر مقصد السورة فقال : " مقصودها إثبات القـــدرة الكاملة لله ــ تعالى ــ اللازم منها تمام القدرة على البعث الـــذي عنـــه

([1]) نظم الدرر ٦ / ٢٠٦ .

يكون أتم الإبقاءين الإبقاء بالفعـــل دائمـــا أبـــدا بـــلا انقطـــاع، و لا زوال . . ." ([1])

٨ ــ قال : تعالى ــ (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فـــإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شئ قدير) (فصلت / ٣٩) للبقاعي كلام جيد في هذا الصدد يكشف به عن السياق ، حيث قال في بيان مناسبة الآية لما قبلها " و لما ذكر بعض آيات السماء لشرفها ؛ و لأن بعضها عبد ، ومن آثار الإلهيـــة ، فـــذكر دلالتها على وحدانيته اللازم منه إبطال عبادتها أتبعه بعض آيـــات الأرض بخلاف ما في (يس) فإن السياق هنالك للبعث ، و آيـــات الأرض أدل، فقال : (ومن آياته . . .) و لما كان السياق للوحدانية عبر بما هو أقرب إلى حال العابد بخلاف ما مضى في الحج ، فقال : (خاشعة) . .. و لمـــا كان هذا دليلا عظيما مشاهدا على القدرة على إيجاد المعدوم ، و إعـــادة البالي المحطوم ، أنتج ، و لا بد قوله : ــ مؤكدا لأجل ما هم فيـــه مـــن الإنكار صارفا القول عن مظهر العظمة إلى ما ينبه على القـــدرة علـــى البعث ، ولابد ــ(إن الذي أحياها . . .) " ([2])

([1]) نظم الدرر ٦ / ١٩٩ .

([2]) نظم الدرر ٦ / ٥٧٩ ، ٥٧٨ .

وقد بين ــ رحمه الله ــ بذلك أن السياق للوحدانية بدليل الآية السابقة عليها ، و طريق إثبات الوحدانية في الآية إثبات القــدرة علـــى البعث ، فاستخدم المجاز هنا ؛ بينا لأثر الماء فيه لفت للنظـــر إلى ظـــاهرة الإنبات من منظور القدرة على البعث خاصة ، وهى في الوقت ذاتـــه رد على من حكى قولـــه في الـــسياق (و مـــا أظـــن الـــساعة قائمـــة) (فصلت / ٥٠) .

٩ ــ قال : ــ تعالى ــ (و الذي نزل من السماء مـــاء بقـــدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون) (الزخرف / ١١) ســـياق هـــذه الآية يقارب سياق آية العنكبوت ، وربما يكون في قولـــه ــ تعـــالى ــ (و لئن سألتهم من خلق السموات و الأرض ليقـــولن خلقهـــن العزيـــز العليم) (الزخرف / ٩) إشارة إلى ذلك حيث توجد نظيرهّا في ســـورة العنكبوت (و لئن سألتهم من خلق السموات و الأرض سخر الـــشمس و القمر ليقولن الله فأنى يؤفكون) (العنكبوت / ٦١) غير أن الفـــرق بين هذا السياق ، و سياق سورة العنكبوت ، أنه ورد في الثانية حـــديث عن البدء و الإعادة في عدة مواطن ، أما هنا فلا حديث عن البعث،و إنما السياق لكمال القدرة ، و قد جاء ذكر البعث ضمن هذا السياق ؛ قياسا للقدرة الغائبة على القدرة المشاهدة ، فوقع إحياء الأرض مشبها به لمشبه هو الإخراج (البعث) وفي هذا السياق قال البقاعي : ــ كاشـــفا عـــن مناسبة الآية لما قبلها ــ " و لما كان إنزال الماء من العلو في غاية العجب،

لا سيما إذا كان في وقت دون وقت ، و كان إنبات النبات به أعجب، وكان دالا على البعث ، و لا بد ، وكان مقصود السورة أنه لا بد من ردهم عن عنادهم بأعظم الكفران إلى الإيمان و الخضوع له بغاية الإذعان ، قال دالا على كمال القدرة على ذلك وغيره بالتنبيه على كمال الوصف بالعطف ، و بإعادة الموصول الدال على الفاعل المذكر بعظمته للتنبيه على أن الإعادة التي هذا دليلها . . . ودل على عظمة الإنبات بلفت القول إلى مظهر العظمة ؛ تنبيها على أنه الدليل الظاهر على ما وصل به من نشر الأموات " [١] وكل ذلك فيه لفت إلى العبادة ؛ إقرارا بالربوبية باستظهار هذا الدليل ، و يؤيد هذا ما جاء بعد في السياق (ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين و إنا إلى ربنا لمنقلبون) (الزخرف / ١٣ ، ١٤) أى : ينبغي أن يؤدي تأمل دلائل القدرة ، و آيات الإنعام إلى الإقرار بالربوبية المستوجبة الشكر الذي العبادة من مظاهره ؛ و لأن السياق ليس في البعث أو التوحيد ، لم يتسع القول في البعث في هذا السياق، و إنما جاء ذكره بطريقة موجزة ؛ لأنه مذكور في سياق دلائل القدرة، و في إيراد أثر الماء بالأسلوب المجازي فضل لفت إلى دليل القدرة على البعث ، لذلك جاء عقب ذكر هذا الدليل أنه باستظهاره ينتهي الناظر فيه إلى العبودية ، وهذا فرق بين ما ذكر بالأسلوب الحقيقي في دلائل

---

[١] نظم الدرر ٧ / ٩ ، ١٠ .

القدرة ، وما هو مذكور بالمجاز هنا ؛ لذلك لو جاء الأسلوب الحقيقي هنا ما لاءم السياق اللاحق للآية الكريمة .

١٠ ــ قال : تعالى ــ (إن في السموات و الأرض لآيات للمؤمنين و في خلقكم و ما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل و النـــهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موها وتـــصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) (الجاثية / ٣:٥) موقع هذه الآية عجيـــب حيث جاءت السورة بعد سورة الدخان ، وفي ســـورة الـــدخان إنكـــار للبعث (إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين) (الدخان / ٣٤ ، ٣٥) كما أتبعت الآية في سورة الجاثية بإنكار للبعث (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الـــدهر . . .) (الجاثية / ٢٤) و (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . . .) (الجاثية / ٢٦) و (و إذا قيل إن وعد الله حـــق و الساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحـــن بمستيقنين) (الجاثية / ٣٢) .

وهذا الموقع قد اقتضى أن يمتاز أسلوب الآية هنا عن سواه بالمجاز عن الماء بالرزق ؛ لأن تسمية الماء رزقا مجاز مرسل علاقته المسببية، حيث ذكـــر المسبب و أراد السبب ، و فيه تهديد ووعيد لهـــؤلاء المنكـــرين للبعـــث بأنكم لا تملكون سبب الرزق (الماء) فكيف تملكون المسبب (الرزق) وهو تهديد ما بعده تهديد ، و لم نر هذا في التراكيب المناظرة ، ثم أورد أثر الماء بالتعبير المجازي ؛ لفتا إلى قوة الدليل على القـــدرة علـــى البعـــث،

و النظر إلى ظاهرة الإنبات من منظور البعث ، و لو جـاء بالأسـلوب الحقيقي هنا ما لاءم السياق المتظاهر على إنكار البعث قبل الآيـة و مـا بعدها .

الفصل الرابع
أثر الماء في السنة المطهرة
بين الحقيقة و المجاز

لم يجر حديث متسع في أثر الماء في السنة المطهرة كما جرى في الكتاب العزيز ، و قد استقريت ذلك بواسطة الحاسب الآلي (الكمبيوتر) في الكتب التسعة (البخاري ، و مسلم ،و الترمذي، و أبوداود،وابن ماجة،و النسائي،و الدارمي، ومسند الإمام أحمد،و موطأ الإمام مالك) فلم أجد غير المواطن التي أوردها في هذه الدراسة ، وقد لحظت أن معظم ما جاء من أثر الماء جاء بالأسلوب الحقيقي ، و لم يرد الأسلوب المجازي في التعبير عن أثر الماء إلا في موطن واحد، و سنعرض لهذه المواطن بالدراسة .

أولا : الأسلوب الحقيقي .

١ ــ روى الإمام أبوداود بسنده " عن أبي جُرَيٍّ جابر بن سليم قال : رأيت رجلا يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئا إلا صدروا عنـــه، قلت : من هذا ؟ قالوا : هذا رسول الله ــ صلى الله عليـــه و ســـلم ــ قلت : عليك السلام يا رسول الله مرتين ، قال : لا تقل : عليك السلام ، فإن عليك السلام تحية الميت ، قل : السلام عليك ، قال : قلت : أنت رسول الله ؟ قال : أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضُرٌّ فدعوتَه كـــشفه عنك ، و إن أصابك عام سنة ، فدعوته أنبتها لك ، و إذا كنت بـــأرض قفراء أو فلاة فضلت راحلتك ، فدعوته ردها عليك ، قـــال : قلـــت : اعهد إليّ ، قال : لا تسبن أحدا ، قال : فما سببت بعده حرا ، و لاعبدا، و لا بعيرا ، و لا شاة ، قال : و لا تحقرن شيئا من المعروف ، و أن تكلم أخاك ، و أنت منبسط إليه وجهك ، إن ذلك من المعـــروف ، وارفـــع إزارك إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعـــبين ، و إيـــاك و إســـبال الإزار، فإنها من المخيلة ، و إن الله لا يحب المخيلة ، و إن امرؤ شـــتمك وعيرك بما يعلم فيك ، فلا تعيره بما تعلم فيه ، فإنما وبال ذلك عليه" ([1])

واضح من سياق الحديث الشريف أنه سيق على ما جـــرت بـــه عادة المتحدث ، و تظهر عادته من إلقاء السلام ، حيث ألقاه علـــى مـــا

([1]) سنن أبي داود كتاب اللباس باب ما جاء في إسبال الإزار و اللفظ له ، حديث رقم (٣٥٦٢) ومسند الإمام أحمد ــ أول مسند المدنيين أجمعين حديث رقم (١٦٠٢١) .

اعتادت العرب صنيعه مع الميت ، لا على ما يوهمه ظاهر النهي من " أن السنة في تحية الميت أن يقال له : عليك السلام ، كما يفعله كـــثير مـــن العامة . . . و إنما كان ذلك القول منه إشارة إلى ما جرت به العادة منهم في تحية الأموات ، إذ كانوا يقدمون اسم الميت على الدعاء . . . و السنة لا تختلف في تحية الأحياء والأموات " ([1]) و كان يكفي في الجـــواب أن يقول : (أنا رسول الله) بيد أن الرسول ـــ صلى الله عليه و ســـلم ـــ لاءم السياق الحالي ، حيث ظهر من حديث السائل أن له نفـــسا مهيئـــة لقبول الخير ؛ لذا هيأ الرسول ـــ صلى الله عليـــه و ســـلم ـــ لنـــصحه بتذكيره بأنه رسول الله ، وهذا الإله له أفضال عليك تستحق الـــشكر، وقدم في التهيئة ما هو أحب و أولى فالنفس مجبولة على حـــب الـــسلامة أكثر من حبها الخير ؛ لذلك قال أولا : " الذي إذا أصابك ضر فدعوتـــه كشفه عنك " و الظاهر من الحال أن السائل كان من الـــذين يقطنـــون البادية ، ولهؤلاء جبلة لا تعرف التكلف،و إنما يكفيها التصريح و التذكير بالواقع ؛ لذلك جاء بأثر الماء معبرا عنه بالأسلوب الحقيقي ، و بين قيمـــة أثر الماء بمجيئه بعد قحط "و إن أصابك عام سنة فدعوته أنبتها لك" و لو قال : أحياها لك ، لما لاءم سياق الحال ، و لاسياق المقال ، و ذلـــك أن سياق الحال دل على أن المخاطب لم ينكر بعثا ، و لم يكن له سؤال عنـــه أصلا ، فوق أن حاله المهيئة للخير ، و التي دعت رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ إلى انتهاب حاله تلك في تقديم الموعظـــة ، حالـــه تلـــك

([1]) عون المعبود ١١/٩٤،٩٣ ط دار الكتب العلمية بيروت دون تاريخ .

ليست حال منكر يقتضي الاستدلال لإنكاره ، و إنمـا يكفـي في مثلـه اللفت و التنبيه ، وجاء بعد ذلك بما يدل على فقه حال المتحدث " و إذا كنت بأرض قفراء أو فلاة فضلت راحلتك فدعوته ردها عليك " و ذلك يكشف عن أنه من البدو الرحل ، و مثله يكفيه القليل في التـذكير ، ألا تراه انبرى قائلا من بعد ذلك " اعهد إليّ " و كذلك حاله من بعد العهد الذي ذكر في الحديث " فما سببت بعده حرا و لا عبدا و لا بعـيرا و لا شاة " وهو غاية في الامتثال لما يؤمر به و يعهد به إليه ، و الاجتناب لمـا ينهى عنه ، فسياق الحال ، و سياق المقال ؛ تآزرا في طلـب الأسـلوب الحقيقي تعبيرا عن أثر الماء ، و لو جاء الأسلوب المجازي في هذا السـياق ما صلح لمجيئه لغير مقتض، وهذا يعني أن الاستدلال مقتضى إنكار، و إذا جاء للغير يكون للفتة بلاغية،و ليس في السياق إنكار يتطلب استدلالا .

٢ ـــ روى الإمام أحمد بسنده " عن أبي رزين العقيلي أنه قال : يا رسول الله أكلنا يرى ربه ـــ عز وجل ـــ يوم القيامة ، وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله : ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْلِيًا به ؟ قال : بلى ، قال : فالله أعظم ، قال : قلـت : يـا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ، وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : أمـا مررت بوادي أهلك مَحْلا ؟ قال : بلى ، قال : أما مررت به يهتز خضرا

؟ قال : قلت : بلى ، قال : ثم مررت به محلا ؟ قـــال : بلـــى ، قـــال : فكذلك يحيي الله الموتى ، و ذلك آيته في خلقه " ([1])

السياق هنا يدل على أن حال المخاطب هو حال متردد يطلب دليلا ، كما أن سياق الكلام يدل على أن حال السائل يكفي فيه الإحالة إلى الواقع المشاهد حوله دون تكلف في الجواب ، أو إيراد دليل معقد يحتاج إلى عمق نظر و فضل ترو ؛ لذا كان الجواب على السؤال الأول عن رؤية الله ـــ عز وجل ـــ " أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْلِيًا به ؟ قال : بلى ، قال : فالله أعظم " وقد كان السؤال غير محتاج إلى تفصيل في الجواب ؛ لأنه لم يكن سؤالا عن الكيفية ، و إنما كان سؤالا عن إمكان وقوع الرؤية ، و كيف يكون وقوعها للكل ؟ وما دليل ذلك إن كان الجواب بالإثبات ؟ أما السؤال الثاني فقد كان سؤالا عن كيفية إحياء الله الموتى ، و الدليل على ذلك ؛ لذا كان الجواب مفصلا " قال : أما مررت بوادي أهلك مَحْلا ؟ قال : بلى ، قال : أما مررت به يهتز خضرا ؟ قال : قلت : بلى ، قال : ثم مررت به محلا ؟ قال : بلى ، قال : فكذلك يحيي الله الموتى ، و ذلك آيته في خلقه " هذه الاستفهامات التقريرية المتعددة و المتتابعة مقتضى السؤال عن الكيفية ، و شئ آخر أن الجواب جاء على طريقة السؤال ، فالسؤال عن آية على ذلك في خلق الله ، فالسائل طلب آية مشاهدة ملموسة على كيفية الإحياء ، و قد جاء

([1]) مسند الإمام أحمد ـــ أول مسند المدنيين أجمعين ، حديث رقم (١٥٦٠٣)

الجواب في ثوب أسلوب التشبيه ، و الأوقع في مثل هذا السياق الحالي ــ الذي يدل على عدم تكلف السائل و إنكاره ــ و المقالي الذي يدل على طلب أسئلة مشاهدة محسوسة ، الأوقع في مثل هذا السياق أن يأتي الأسلوب الحقيقي تعبيرا عن أثر الماء ؛ لأنه هنا بمثابة المشبه به لمشبه هو إحياء الله الموتى ، و قل مثلا : أما مررت به يحيا مكان قوله ــ صلى الله عليه و سلم ــ " أما مررت به يهتز خضرا ؟" ما من ريب في أنك تحس حينها بالتنافر بين المقال و السياق ؛ لأنك تكون قد قست غيبا بغيب، وهو مما لا يصلح في هذا السياق ، و ربما تلمس ذلك وراء قوله ــ صلى الله عليه و سلم ــ " أما مررت به يهتز خضرا ؟" حيث لم يقل أما مررت به ينبت ؟ لأن القول الثاني لا يلائم حال السائل الذي يحتاج جوابا واضحا ، و آية ناصعة ، فجاء قوله ــ صلى الله عليه و سلم ــ واضعا السائل في معمعان المشاهدات المتكررة ، وفي وقتين متضادين للأرض وقت محولها ، وهي صورة بغيضة لكل مشاهد لا سيما البدو ، و أهل الريف ــ و السائل منهم ــ و الحال الثانية للأرض هي حال الزهو بخضرتها ، و جمال نبتها (أما مررت به محلا ، أما مررت به يهتز خضرا) وهما حالان يشبهان حالي الموت و الحياة ، ثم إن السياق هنا لتقريب كيفية الإحياء ، و ليس سؤالا عن القدرة على الإحياء ؛ لذلك جاء المشبه " فكذلك يحيي الله الموتى " و الأليق بسياق التقريب هذا أن يقاس ما هو غيب على ما هو مشاهد ، كما أن الأليق به أيضا أن يكون القياس على حقائق ، لا على مجازات ، لأن الأول أبر بالتقريب .

٣ ــ روى البخاري بسنده " عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح (هو مكان في طريق التنعيم بمكة) قبل أن يترل على النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ الوحي فقُدِّمَتْ إلى النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ سفرة ، فأبى أن يأكل منها ، ثم قال زيد : إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ، و لا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه ، و أن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم ، و يقول الشاة خلقها الله ، و أنزل لها من السماء الماء ، و أنبت لها من الأرض ، ثم تذبحونها على غير اسم الله ؛ إنكارا لذلك ، و إعظاما له " [١]

السياق المقالي للحديث دل على سياق الحال ، إذ كان هذا الحديث قبل البعثة ، و الشاهد في قول زيد " الشاة خلقها الله ، و أنزل لها من السماء الماء ، و أنبت لها من الأرض " فلم يقل و أحيا لها من الأرض ؛ لأن السياق في العيب على الذبح باسم غير المنعم بالمذبوح، أى : أن السياق في بيان الشأن ممن منه النعمة ، و إيراد الأسلوب الحقيقي في مثل هذا السياق هو الأولى لما فيه من سوق الدليل على إنكار صنيعهم دون تكلف ، موافقة لجبلة العرب آنذاك ، فقد كانت لا تعرف التكلف هذا ، فوق أن السياق لا يستدعي المجاز بحال من الأحوال ، لأنه لم يقابل

[١] صحيح البخاري كتاب المناقب باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل رقم (٣٥٤٠)

بإنكار ، أضف إلى ذلك أنه ليس سياق الحديث في البعث ، و لكن المقصد العيب على الذبح على النصب مع أنه لم يكن منها خلق و لارزق، ولا إنبات وقد كان فعله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ مبنيا على " أن الأشياء قبل الشرع لا توصف بحل و لا حرمة " ([1]) على أن الحديث ليس فيه ما يدل أنه ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ أكل منها .

٤ ـــ روى الإمام مسلم بسنده " عن أبي هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ قال : ليست السَّنَة بأن لا تمطروا ، و لكن السَّنَة أن تُمطَروا و تُمطَروا ، و لا تنبت الأرض شيئا " ([2])

الحديث هنا حديث إخبار عن تأويل لمعنى (السَنَة) يخالف ما شاع عند الناس من التأويلات ، فالشأن عند الناس وقتها أن السنة هي غياب المطر الذي ينتج عنه القحط ، وعدم الإنبات ، فجاء هذا التأويل ليكشف أن السنة هي عدم الإنبات ، وإن نزل المطر ، أى : أنه لا قيمة للماء دون أن يكون له أثر ، فالسياق هنا ليس سياق استدلال على القدرة على البعث ، و لا سياق امتنان ، و إنما هو سياق تصحيح مفهوم ؛ لذا لو قال هنا : و لا تحيي الأرض شيئا ما صلح في

([1]) ينظر فتح الباري ٧ / ١١٢ ، ١١٣ ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٨هـ .
([2]) صحيح مسلم ـــ كتاب الفتن و أشراط الساعة باب في سكنى المدينة و عمارتها قبل الساعة حديث رقم (٥١٦٦)

تصحيح المفهوم ، إلا إذا كان السياق سياق امتنان ، أو سوق دلائل قدرة على البعث ، و ليس السياق كذلك ، ثم إن الأبر بتصحيح المفاهيم أساليب الحقيقة التي تكون محددة للمعنى و موضحة له ، لا المجاز الذي يتكئ على الخيال وقوة المعنى و المبالغة فيه .

٥ ــ روى الإمام أبو داود بسنده " عن أبي الوليد قال : سألنا ابن عمر عن الحصى الذي في المسجد فقال : مُطِرْنَا ذات ليلة فأصبحت الأرضُ مُبْتَلَّةً ، فجعل الرجل يأتي بالحصى في ثوبه ، فيبسطه تحته ، فلما قضى رسول الله ــ صلى الله عليه و سلم ــ الصلاة ، قال : ما أحسن هذا " [1]

جاء الحديث جوابا لسؤال عن حكم افتراش الحصى في المسجد أيجوز أم لا ؟ هذا سبب ورود الحديث ، و أراد ابن عمر ــ رضى الله عنه ــ إيراد جواب مؤيد بسنة تقريرية ؛ تأكيدا للإباحة ، وقد جاء أثر الماء هنا معبرا عنه بالأسلوب الحقيقي ؛ لأن السياق بصدد حكم فقهي، و الأسلوب الحقيقي ألصق بتحديد الأحكام من الأسلوب المجازي ، ومن أثر السياق هنا في اصطفاء الألفاظ أنه قال : " فأصبحت الأرض مبتلة " فلو قال : فأنبتت الأرض لكان التعبير صحيحا لغة ، فاسدا بلاغة، فابتلال الأرض في هذا السياق هو الذي يتعلق به الحكم ، حيث يشكل

([1]) سنن أبي داود كتاب الصلاة باب في حصى المسجد حديث رقم (٣٨٧)

علة الحكم ، فابتلال الأرض سبب في افتراش الحصى في المسجد ؛ لذا لو قال : فأصبحت الأرض مخضرة ، أو فأحييت الأرض ، أو فأنبتت الأرض لو قال : شيئا من ذلك ما صلح في هذا السياق على الإطلاق، فالسياق ذو أثر بالغ في اصطفاء الألفاظ و الأساليب .

٦ ــ روى البخاري بسنده " عن أبي موسى ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ قال : مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقيَّةٌ قَبلَت الماءَ فأنبتَت الكلأ و العشبَ الكثير ، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماءَ فنفع الله بها الناسَ فشربوا و سقوا وزرعوا ، و أصابت منها طائفة أخرى إنما هي قِيعَانٌ ، لا تمسك ماءً ، و لا تنبت كلأ ، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دين الله ، و نفعه ما بعثني الله به ، فعَلم ، وعلّم ، ومَثَلُ مَنْ لم يرفعْ بذلك رأسا ، و لم يقبل هدى الله الذي أُرْسِلْتُ به " (١)

الحديث الشريف مسوق لبيان حال الناس إزاء تقبل ما جاء به النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ من الوحي ، وقد اصطفى ــ صلى الله عليه و سلم ــ الماء ، وتأثر الأرض به مشبها به، وجعل العلم ، وتأثر الناس به مشبها ؛ لذلك قال الخطابي " هذا مثل يضرب لمن قبل الهدى،

(١) صحيح البخاري ــ كتاب العلم ــ باب فضل من علم و علم حديث رقم (٧٧) و اللفظ له ، و رواه مسلم في صحيحه ــ كتاب الفضائل ــ باب مثل ما بعث به النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ من الهدى و العلم حديث رقم (٤٢٣٢).

وعلم ثم علم غيره ، فنفعه الله ، ونفع به ، ومن لم يقبل الهدى فلم ينفع بالعلم ، و لم ينتفع به " ([1]) فليس الماء و أثره هما المقصد الأصلي بالبيان في هذا الحديث ، و إنما حال الناس مما جاء به الرسول ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ هو المقصد الأصلي ؛ لذلك قال القرطبي : " و مقصود هذا الحديث ضرب لما جاء به النبي ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ من العلم والدين ، ومن جاءهم بذلك " ([2]) وقد جاء المشبه معقولا ، و المشبه به محسوسا ؛ لذلك جاء أثر الماء بالأسلوب الحقيقي ، لأن ذلك أوقع في القياس ، و أقرب إلى الإقناع .

٧ ـــ روى الإمام مسلم وغيره بسندهم " عن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ الدجَّال ذات غداة، فخفّض ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رجعنا إليه عرفَ ذلكٍ فينا ، فقال : ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداةَ، فخفضت فيه و رفّعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : غيرُ الدجَّال أخوفني عليكم ، إن يخرج و أنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، و إن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفْسه ، و الله خليفتي على كل مسلم . إنه شابٌّ قطَطٌ عيْنُه طافئةٌ ،كأني أشبهه بعبد العزى بن قَطَنٍ ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتحَ سورة الكهف ، إنه خارج خَلّضةً بين الشام

([1]) عمدة القاري ٢ / ٧٩ .

([2]) المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ٦ / ٨٣ .

و العراق ، فعاث يمينا و شمالا ، يا عباد الله فاثبتوا ، قلنا : يا رسول الله، وما لُبْثُهُ في الأرض ؟ قال : أربعون يوما كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ، قال : لا ، اقدروا له قدره ، قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح، فيأتِي على القوم ، فيدعوهم ، فيؤمنون به ، و يستجيبون له فيأمر السماء فتمطر ، و الأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرًّا و أسبغَه ضُرُوعا ، و أمدَّه خَواصرَ ، ثم يأتِي القومَ ، فيدعوهم ، فيردُّون عليه قولَه ، فينصرف عنهم ، فيصبحون مُمْحلِين ، ليس بأيديهم شئٌ من أموالهم ، و يمر بالخَرِبة ، فيقول لها : أَخْرِجِي كنوزَك ، فتتبعُهُ كنوزُها كيعاسيبِ النَّحْل ، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا ، فيضربه بالسيف ، فيقطعه جزلتين رميةَ الغَرَضِ ، ثم يدعوه ، فيقبل ، و يتهلل وجهه ، و يضحك، فبينما هو كذلك ، إذ بعث الله المسيح ابن مريم . . . " (١)

هذا جزء من حديث طويل في الفتن ، و الذي يعنينا منه هو قوله : ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ (فيأمر السماء فتمطر و الأرض فتنبت)

---

(١) صحيح مسلم ـــ كتاب الفتن و أشراط الساعة حديث رقم (٥٢٢٨) و سنن الترمذي كتاب الفتن عن رسول الله حديث رقم (٢١٦٦) وكتاب المناقب حديث رقم (٣٧٣١) وسنن أبي داود كتاب الملاحم حديث رقم (٣٧٦٤) وسنن ابن ماجة حديث رقم (٤٠٦٥) ومسند الإمام أحمد كتاب مسند الشاميين حديث رقم (١٦٩٧١). (قطط : شديد جعودة الشعر ، طافئة : ذهب نورها ، السارحة : الماشية و الدواب التي ترعى ، الذروة : أعلى كل شئ و المراد أعلى السنام ، أثداؤها مليئة باللبن أكثر مما كانت ،كناية عن الامتلاء و كثرة الأكل ، اليعسوب : أمير جماعة النحل)

حيث جاء أثر الماء معبرا عنه بالأسلوب الحقيقي ، فلم يقل : فيأمر الأرض فتحيي ؛ لأن السياق ليس في إظهار قدرة متفردة ، و إنما السياق في الفتنة ، و الفتنة متعلقة بالإنبات و ليست متعلقة بالإحياء ؛ لأن الجزئية الأخيرة في الفتنة أتت بعد ذلك في السياق " ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا ، فيضربه بالسيف ، فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل و يتهلل وجهه يضحك " وحين يصل الأمر إلى هذا الحد يبعث الله المسيح ، و شئ آخر هو أن روايات أخر لهذا الحديث دلت على أن ذلك لا يحدث إلا مرة واحدة ، و أن الإحياء لا يجريه الله له إلا على رجل واحد ، حتى يرى من يثبت على إيمانه ، ومن يكفر ، من أجل ذلك جاء التعبير عن أثر الماء بالأسلوب الحقيقي ، وقد جاء في رواية أخرى ما يدل على أن ما يحدثه مخالف للواقع " إن الدجال يخرج ، و إن ما معه ماء ونارا ، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق ، و أما الذي يراه الناس نارا فماء بارد عذب ، فمن أدرك ذلك منكم ،فليقع في الذي يرى نارا ، فإنه ماء عذب طيب " (١)

٨ ـــ روى الإمام مسلم وغيره بسندهم " عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها و لا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيئ بهم

(١) صحيح مسلم ـــ كتاب الفتن و أشراط الساعة باب ذكر الدجال و صفته و ما معه .

ضبائرَ ضبائرَ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نباتَ الحبّة في حميل السيل " ([1])

في هذا الحديث سياق الحال لم يحدث بعد ، وما هنا إخبار به، وهو حق ، و سياق الكلام يلائم سياق الحال المخبر به ، حيث يكون إحياؤهم إنبات (فينبتون نبات الحبة . . .) و ليس من الممكن أن يقال : فيحيون نبات الحبة . . . لأنه لا يلائم التقريب الذي هو من مقاصد التشبيه هنا ؛ قياسا لما لم يحدث على ما هو كائن و متكرر ؛ و بيانا لإمكان وقوع ذلك دون استبعاد له ، و إخبار بيسر حدوث ذلك على الله ـــ عز وعلا ـــ ونرى ذلك وراء اختيار عناصر المشبه به (الحبة) و (في حميل السيل) و ذلك هو ما ينبت في الصحاري ، دون أن يكون للبشر يد في تنميته و إنمائه ، أى أن إحياء هؤلاء من أيسر ما يكون، وهو تناغم مع سياق المقال " فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما " وهو حال لا يرجى معه حياة مرة ثانية في منطق البشر ، و في القدرة المطلقة كلٌّ جائز ، و سهل ميسور ، وهو ما أبان عنه أسلوب التشبيه ؛ لذلك قال : فينبتون ، و لم يقل : فيحيون ، لما في الثاني من مظنة التعب و المشقة،و لما كان الأمر كذلك لم يكن سائغا و لا مناسبا أن يعبر عن أثر الماء هنا بالأسلوب المجازي ، فهل من الممكن في هذا السياق أن يقال : فينبتون

([1]) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم (٢٧١) و سنن ابن ماجة كتاب الزهد حديث رقم (٤٢٩٩) ومسند الإمام أحمد كتاب باقي مسند المكثرين حديث رقم (١٠٦٥٥) (ضبائر : جماعات متفرقة ، الحميل : ما يحمله السيل من طين و غيره)

نباتا كإحياء الحبة في حميل السيل ، ما من ريب في أنه يعاند هذا السياق؛ لأن السياق يطلب أسلوبا يكشف عن يسر إعادة هؤلاء من أحسن ما يكون بعد ما صاروا فحما ، و يئس الناظرون من الإنعام عليهم بذلك .

٩ ـــ روى الترمذي بسنده " عن أبي سعيد قال : دخل رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ مصلاه ، فرأى ناسا كأنهم يكتشرون، قال : أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات لشغلكم عما أرى ، فأكثروا من ذكر هاذم اللذات الموت ، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه، فيقول : أنا بيت الغربة ، و أنا بيت الوحدة ، و أنا بيت التراب و أنا بيت الدود ، فإذا دفن العبد المؤمن ، قال له القبر : مرحبا ، و أهلا أما إن كنت لأحب من يمشي على ظهري إليّ ، فإذْ وُليتك اليوم ، و صرت إليّ ، فسترى صنيعي بك ، قال : فيتسع له مد بصره ، و يفتح له باب إلى الجنة ، و إذا دفن الفاجر أو الكافر ، قال له القبر : لا مرحبا ، و لا أهلا ، أما كنت لأبغض من يمشي على ظهري ، إليّ ، فإذا وليتك اليوم، و صرت إليّ ، فسترى صنيعي بك ، قال : فيلتئم عليه ، حتى يلتقي عليه ، و تختلف أضلاعه ، قال : قال رسول الله ـــ صلى الله عليه و سلم ـــ بأصابعه ، فأدخل بعضها في بعض في جوف بعض ، قال : و يقيض الله له سبعين تنينا ، لو أن واحدا منها نفخ في الأرض ، ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا ، فينهشنه ، و يخدشنه ، حتى يفضي به إلى الحساب ، قال : قال

رسول الله ــ صلى الله عليه و سلم ــ إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار " (١)

على الرغم من أن الماء لم يذكر هنا إلا أنا رأينا أن نورد هذا الحديث ، من أجل أن الإنبات لا يكون إلا بالماء ، و السياق في الحديث عن نعيم القبر و عذابه ، و الذي يعنينا هنا هو قوله : ــ صلى الله عليه و سلم ــ " لو أن واحدا منها نفخ في الأرض ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا " و السؤال هو : لم قال : ما أنبتت ، و لم يقل : ما أحيت ؟ و الجواب : أن سياقي الحال و المقال اقتضيا ذلك ، وطلباه ، و ذلك أن الحديث حديث عن عذاب القبر ، و سياق الحال أن هؤلاء الذين رآهم يفعلون فعل غافل عن عذاب القبر و نعيمه ، فأورد لهم حديثا يحملهم عن الانتهاء عما هم فيه ، و يرغبهم في العمل بعكسه ، لذلك ذكر النعيم أولا ؛ إيناسا لهم بتقديم ذكر النعيم على ذكر العذاب ، و ذلك ألصق بمقصد الترغيب ، ثم أتبعه ذكر الترهيب ، فكما قالوا : بضدها تتمايز الأشياء ، و سياق المقال هنا وكذلك سياق الحال لا يقتضيان إنكارا،و لا إثباتا ، و إنما السياق سياق إخبار ، ثم إن السياق في الحديث عن نعيم القبر و عذابه ، و ليس في إثبات البعث ، فتوجه المقال ــ تلاؤما مع الحال ــ على التظاهر على الترهيب ، فجاء قوله " ما أنبتت شيئا " ترهيبا لشأن هذا التنين ، فهذا أثره في الأرض ، فماذا عن أثره فيمن خلق

---

(١) سنن الترمذي كتاب صفة القيامة و الرقائق و الورع عن رسول الله ــ صلى الله عليه و سلم ــ حديث رقم (٢٣٨٤) ، ومسند الإمام أحمد ــ كتاب باقي مسند المكثرين حديث رقم (١٠٩٠٦) (يكتشرون : يضحكون) .

منها ؟ وشئ آخر هو أن الأسلوب الحقيقي هنا ألصق بمقام الترهيب، و ذلك أن قياس غير الحاصل على الحاصل الأولى به ذكر الحاصل بالأسلوب الحقيقي ، لا بالأسلوب المجازي ، و كما قلت : العناية هنا بالترهيب من شأن التنين ، و نفخه و أثره .

ثانيا : الأسلوب المجازي

١ ــ روى الترمذي و غيره بسندهم " عن سعيد بن زيد عن النبي ــ صلى الله عليه و سلم ــ قال : من أحيا أرضا ميتة فهي له، و ليس لعرق ظالم حق " ([١])

السياق هنا يطلب الأسلوب المجازي في التعبير عن أثر الماء ؛ لأن السياق لاستحقاق الملكية ، و استحقاق الملكية مرده إلى ما بذل من جهد لقاء هذه الملكية ؛ لذلك جاء أسلوب المجاز هنا كاشفا عن حالتين متباينتين ، حال الأرض قبل إعمارها ، و حالها بعد إعمارها ، لذلك جاء هذا الوصف ميتة للأرض ، و الأرض الميتة : " هي التي لم يعمر شبهت عمارتها بالحياة ، وتعطيلها بالموت " ([٢]) قال المناوي : " و الميتة و الموات أرض لم تعمر قط ، و لا هي حريم لمعمور ، قال القاضي : الأرض الميتة : الخراب التي لا عمارة بها ، و إحياؤها : عمارتها ، شبهت عمارة الأرض بحياة الأبدان ، و تعطلها و خلوها عن العمارة بفقد الحياة ، وزوالها عنها

([١]) سنن الترمذي ــ كتاب الأحكام عن رسول الله ــ باب ما ذكر في إحياء أرض الموات حديث رقم (١٢٩٩) و سنن أبي داود ــ كتاب الخراج و الإمارة و الفيئ باب ما جاء في إحياء الموات حديث رقم (٢٦٧١) و (٢٦٧٢)ورواه الإمام أحمد ــ كتاب باقي مسند المكثرين ــ باب مسند جابر بن عبد الله حديث رقم (١٣٧٥٣)و (١٣٨٤٢)و سنن الدارمي ــ كتاب البيوع باب من أحيا أرضا ميتة حديث رقم (٢٤٩٣)وموطأ الإمام مالك ــ كتاب الأقضية ــ باب القضاء في عمارة الموات حديث رقم (١٢٢٩) .

([٢]) تحفة الأحوذي ٤ / ٥٢٦ ،٥٢٧ ط دار الفكر بيروت ١٤١٥هـ .

. . . قال القاضي : ترتب الملك على مجرد الإحياء ،و إثباته لمن أحيا على العموم دليل على أن مجرد الإحياء كاف في التمكن ، و لا يشترط فيه إذن السلطان " ([1]) وقد جاء الأسلوب بالاستعارة ، وهذه الاستعارة تعكس مدى الجهد و العناء في تحويل الضد إلى الضد ؛ لذا لو قال : من زرع أرضا فهي له ، لما كان في ذلك استحقاق للملكية ؛ لأن الأسلوب لا يعكس جهدا ، و لا مشقة تستوجب الملكية ، و لو قال : من زرع أرضا فهي له لفسد المراد ، أما الأسلوب المجازي هنا فهو من أحسن ما يكون مطابقة للمقتضى ، وملاءمة للسياق ؛ لذلك سوغ هذا الأسلوب أن يقال بعده : (فهي له) و يؤكد على ذلك بقوله بعده : (و ليس لعرق ظالم حق) كل ذلك تأكيد على استحقاق ملكية ما كان إعماره بمثابة بث الحياة ، بعد أن كان تعطيله بمثابة الموت ، و قد أحسن الشراح القول هنا ، إذ قالوا تعليقا على قوله : (فهي له) " أي : صارت تلك الأرض مملوكة له سواء كانت فيها قرب من العمران ، أم بعد ، سواء أذن له الإمام في ذلك ، أم لم يأذن ، وهذا قول الجمهور " ([2])

"وذلك أن هذه كلمة شرط وجزاء ، فهو غير مقصود على عين دون عين ، و لا على زمان دون زمان ، و إلى هذا ذهب أكثر العلماء "

([1]) فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي شرح حديث رقم (٨٣٤٥) ط دار المعرفة ١٣٩١هـ .

([2]) تحفة الأحوذي ٤ / ٥٢٧ .

(١) و صياغة الحديث بأسلوب الشرط من أروع ما يكون مطابقة ؛ لأن المراد الكشف عن الشرط الذي به استحقاق الملكية ، و التأكيد الثاني : (و ليس لعرق ظالم حق) ذكر ابن الأثير في النهاية أن المعنى : أن يجيئ الرجل إلى أرض قد أحياها رجل قبله ، فيغرس فيها غرسا غصبا ليستوجب به الأرض " (٢) و عند المناوي : " (لعرق ظالم حق) بإضافة عرق إلى ظالم ، فهو صفة لمحذوف تقديره : لعرق رجل ظالم ،و العرق أحد عروق الشجرة ، أي : ليس لعرق من عروق ما غرس بغير حق بأن غرس في ملك الغير بغير إذن معتبر " (٣) أى : لا استحقاق لملكية أرض بمجرد الغرس فيها ، وقد أصلحت بيد غيره ، و قد جاء ذلك بأسلوب بليغ ، فلم يقل و ليس لظالم حق و إنما أضاف الظلم إلى العرق حيث استحق بهذه الإضافة عدم الانتساب إلى زارعه ، و ذلك هو الشأن في العرق المغروس فما الشأن بالغارس ؟ ! فهو تحريم بطريق الأبلغ .

٢ ــ عن مالك " أنه بلغه أن لقمان الحكيم أوصى ابنه ، فقال : يا بني : جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء " (٤)

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود ٨ / ٢٢٧ .
(٢) النهاية في غريب الحديث و الأثر مادة (ع ر ق)
(٣) فيض القدير حديث رقم (٨٣٤٤)
(٤) الموطأ ــ كتاب الجامع ــ باب ما جاء في طلب العلم .

السياق هنا للترغيب في العلم ، ومجالسة العلماء ؛ لذا جاء الحث على ذلك بالأسلوب المجازي الأليق بسياق الترغيب ، و الذي يحيل المنفعة المعقولة منفعة محسوسة ، و ذلك أعلى في التحريض على إتيانها، وقد جاء ذلك بأسلوب التشبيه ، وقد جاء طرفا التشبيه مجازين (يحيي القلوب) و (يحيي الأرض الميتة) و لأجل هذا السياق لم يكن لائقا إلا الأسلوب المجازي تعبيرا عن أثر الماء ؛ تناغما بين طرفي التشبيه ؛ و تآزرا في أداء المقصد الأصلي ، وهو الترغيب في طلب العلم ، ومجالسة العلماء ، لما فيه من المبالغة و قوة المعنى ، و قد ذكر الباجي في المنتقى على الموطأ : " أن نور الحكمة تغزر القلوب حياة بالطاعة بعد أن كانت ميتة بالمعصية ، كما أن وابل السماء ، وهو غزير قطرها يحيي الأرض بالنبات و المياه، و الخصب بعد موتها ، و كذلك ما يحدث إليه في القلوب من حياتها بنور الحكمة " (١)

وما كان لأثر الحكمة أن يظهر إلا بمجيئ المشبه به بأسلوب المجاز ، و لك أن تضع الحقيقة ؛ بدلا من المجاز في هذا السياق ، فإنك سوف ترى تنافر الأسلوب الحقيقي في التعبير عن أثر الماء مع السياق ، قل : فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما ينبت الله الأرض الميتة ، أو قل غير ذلك ، فإنك لا ترى أليق بالسياق سوى الأسلوب المجازي .

---

(١) شرح المنتقى للقاضي أبي الوليد الباجي ٧ / ٣٢٧ . ط السعادة ــ مصر ١٣٣٢ هـ .

الفصل الخامس

من أثر الماء في الشعر العربي بين الحقيقة و المجاز

العرب أمة كان أكثر رزقها الرعي و الزراعة ؛ لذا كان للماء في حياتها أعظم الأثر ، وقد انعكس هذا الأثر في بيانهم شعرا و نثرا، و تنوعت أساليب التعبير عن أثره ، في عصور البيان المتتابعة ، كيف لا ؟ وحديث الأطلال كله أثر لغياب الماء ، وفراق الأحباب بسبب غياب الماء ، و تلاقيهم وتواصلهم يبنيه الماء ، فهو رحمة للمحتاجين ، و غيث للمحبين ، يغيب فتعتريهم أشباح النوى ، و تنبت في أفئدتهم لواعج الجوى ، وتلوح لهم مخايله فيعاودهم الأمل ، بعدما أهلكهم الألم .

و سأصطفي منها ما جاء بالحقيقة، و ما جاء بالمجاز ، ولما كان الحديث عن الماء شاغلا مساحة كبرى من شعرهم استقر الأمر عندي على اصطفاء بعض المثل من أشعارهم،و بيان العرب بيان جليل ، و من حق البيان الجليل أن يتحدث عنه بكلام جميل ، و أحب أن أنبه من أول الأمر أني على شاطئ الشعر سأقف دون أن ألج معمعانه ، و دراستي لهذه النماذج هي دراسة الدال على الباب ؛ لأن استكناه السياق الشعري في فضائه المتسع مما يقتضي زمنا ، ربما أفرغ له ، و حسبي أنني دللت عليه غيري.

أولا : الأسلوب الحقيقي :

سأعرض عدة نماذج للحطيئة ،و عمر بن أبي ربيعة ، و المتنبي، أحاول فيها الكشف عن أثر السياق في اصطفاء الأسلوب الحقيقي ؛ تعبيرا عن أثر الماء .

١ ـــ مع قصيدة للحطيئة : (١)

عفا تُوأمٌ من أهله فجَلاجِلُه ... فـرُدَّ على الحيِّ الجميعِ جمائلُه
وعالَين رقْما فوقَ عقمٍ كأنّه ... دمُ الجوف يجري في المذارع واشلُه
كأن النِّعاجَ الغُرَّ وسْطَ رحالهم ... إذا استجمعتْ وسْطَ الخدور مطافلُه
أبي لابنِ أرْوَى خلّتان اصطفاهما ... قتالٌ إذا يلقى العدوَّ ونائلُه
فتى يملأ الشِّيزى و يُروِي بكفه ... سنانُ الرُّدَيْنِيِّ الأصمِّ وعاملُه
يؤمُّ العدوَّ حيث كان بجحْفَلٍ ... يصم السميعَ جَرْسُه وصواهلُه
إذا حان منه منزلُ الليل أُوقدتْ ... لأخراهُ في أعلى اليَفَاعِ أوائلُه
ترى عافياتِ الطير قد وَثِقَتْ لها ... بشبْعٍ منَ السّخْلِ العِتاقِ منازلُه

(١) القصيدة في الموسوعة الشعرية ، (Cd) مفردات القصيدة (عفا : محا ، جلاجله : الغلمان الخفاف الروح النشيطون في عملهم ، جمائله : الحسان الخلق ، رقما : علامة ، المذارع : واحده مذراع ، و المذراع من الدابة قائمتها ، ومن الوادي ناصيته ، واشله : متحلب الماء ، مطافله : ذوات الأطفال من الإنسان و الحيوان الشيزى : خشب تعمل منه الأمشاط و الجفان ، و يقال للأمشاط و الجفان الشيزى ، العتاق : كل شئ لم يتمم ، و الضعيف الرذل ، العتاق : الطيور الجوارح ، قنابله : هي المصايد التي يصاد بها أبو براقش (الفأر) و الطائفة من الناس ، الجعاد : من جعد الشعر وغيره ، تقبض والتوى ، وابله : المطر الشديد الضخم ، زغب : صغار ، راث : ألقى روثه ، النهض : الغليظ من الأرض يشق السير فيه .)

بناتُ الأغرِّ و الوجيهِ و لاحـــقٍ يقودَنّ في الأشْطان ضخْما جحافلُه
يظلُّ الرداءُ العصبُ فـوقَ جبينه يَـقي حاجبيْه ما تُثـير قـنابـلُه
نَفَيْتَ الجعادَ الغُرَّ منْ عُقْرِ دارِهــم فلمْ يَبْـقَ إلا حيّةٌ أنتَ قـاتـلُـه
وكمْ من حَصَانٍ ذاتِ بعلٍ تركتَها إذا الليلُ أدْجَى لم تجـدْ من تُبَاعلُه
وذي عَجَزٍ في الدارِ وسَّعْـتَ دارَه وذي سَعَةٍ في داره أنت نـاقـلُه
و إني لأرجوهُ و إن كـان نائيا رجـاءً الـربيعِ أنبتَ البقلَ وابلُه
لزُغْبٍ كأولادِ القَطَا راثَ خلقُـها على عاجزاتِ النَّهْضِ حمرٍ حواصلُه

حديثنا حول القصيدة يدور على هذا الأسلوب ، وعلاقته بالسياق :

و إني لأرجوهُ و إن كـان نائيا رجـاءً الـربيعِ أنبتَ البقلَ وابلُه

و لماذا قال الشاعر : أنبت ، و لم يقل أحيا ؟ وهو مما يقتضي النظر في تحدر الأسلوب من أول القصيدة إلى آخرها ، و سياق الحال ــ كما يهدي إليه سياق المقال ــ يدل على أن القصيدة قيلت في مدح ابن أروى بغية العطاء ، لذا دارت الأبيات على صفتين للممدوح هما الشجاعة والكرم، و الذي ألحظه أن الأبيات يعانق آخرها أولها ، فقد ابتدأها بما يلائم غرضه في الحديث عن تبدد المحل و القحط ، و اخضرار الأرض، واستردادها الحسن و البهاء، فالنعاج ترتع ، و الماء لا ينقطع ، وابن أروى فتى إذا أعطى أشبع ، فهو يملأ الجفان ، و إذا حمى منع فهو ذو جيش عظيم ، يستعين آخره على بيان أوله بإيقاد أوله النار ، و أنت تبصر الشاعر ،وهو يتحدث عن شجاعة الممدوح يلوي عنقها نحو مراده، فالممدوح رجل يعين العاجزين الضعاف، و يوسع ديارهم ، و يطرد ذوى

السعة الجبارين من ديارهم ، وهو ما يلائم غرضه ، وهو طلب العطـــاء للضعاف العاجزين (لزغب كأولاد القطا) وهذا نسيج بديع ، و اختيار رائع لعناصر القصيدة ، وعقد للُّحمة بين أبيات القصيدة ، فقـــد مهـــد لغرضه من البيت الأول إلى البيت الثالث عـــشر بمـــا يناســـب غرضـــه و مقصده ، الذي يلقي به بين يدي ابن أروى ، وقد لف مطلبه بـــصورة الماء وأثره على وجه يعانق مطلع القصيدة غرضه الذي أمَّ ، ومطلبه الذي أراد فهو يرجوه العطاء رجاء الربيع الذي أنبت الوابل بقله ، و تلحـــظ هنا أنه قال وابله ، و الوابل : هو المطر الشديد ، فهو يرجو عطاء غزيرا يلائم صفة الممدوح التي ذكرها في الأبيات السابقة ، لذا لم يقـــل رجـــاء الربيع أنبت البقل ماؤه ، لأنه مما يعاند النسيج السابق ، في التظاهر على المبالغة في وصف كرم الممدوح ، كما أن قوله : (أنبت) يلائم حـــال من يرجو لهم العطاء ، فهم زغب في مرحلة النبت ، وهذا يعني أن العطاء المرجو لهم هو عطاء عظيم يلائم حالهم ، فهم في حال ضـــعف كحـــال النبت في أول مراحله ، ولو قال : أحيا ما صلح ، و مـــا لاءم الـــسياق بشقيه (الحال و المقال) لأن صورة الإنبات هي الأشبه بحالهم ، لا صورة الإحياء ، وقد قدم الشاعر ذكر الصورة التشبيهية على من يرجـــو لهـــم العطاء ، استمالة للممدوح ، فأصل الكـــلام : و إني لأرجـــوه لزغـــب كأولاد القطا راث خلقها على عاجزات النهض حمـــر حواصـــله رجـــاء الربيع أنبت وابله البقل ، و إن كان كان نائيا ، لكنه قدم و أخر و نسج

و أبدع ، ليكشف عن مراده خير كشف ، و يجلي مقصده أجلى بيـــان و أوضحه ، وهو شأن صناعة الشعر ، و ديدن نسج الكلام .

٢ ـــ قصيدة لعمر بن أبي ربيعة : (١)

قـــد نبـــا القلبُ منها   إذْ تَوَاعَـــــدْنا الكثيبا
قولها أحســــــنُ شيءٍ   بكَ قـــد لـــفَّ حبيبا
قـــولها لي وهي تَذْرِي   دمــــــعَ عينيْهَا غرُوبا
إنـــنـــا كنَّـــا لهذا   أنصـــحُ الناسِ جيوبا
وحبـــوْنَاهُ بـــــــوُدٍّ   لم يكُن منـــه مَشُـــوبا
فجـــــــزانا إذْ حمدْنا   ودَّه لي أن يَـــغـــيـــبا
و كســـانا اليومَ عارا   حين بنّا وعيـــوبـــا
نأيُها سقْمٌ و أشْتَـــا   قُ إذا تمشـــي قـــريبا
ليت هذا الليلَ شهــرٌ   لا نَـــرى فيـــه غريبا
مُقْمِرٌ غيَّـــبَ عنَّـــا   من أردْنا أن يَغيـــبـــا
ليـــس إلاَّىَ و إيـــــا   هـــا ولا نخشى رقيبا

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٧٨ ، ٧٩ تحقيق د / فايز محمد ط دار الكتـــاب العـــربي بـــيروت ١٤١٢ هــ . المفردات : (نبا : ابتعد ، الكثيب : المجتمع من الرمال ، ذرى الدمع : ســـكبه ، الغرب : جمع غرب ، وهو الدلو الكبيرة ، كناية عن غزارة الدموع ، أنصح الناس جيوبا : كناية عن صفاء القلب و النفس ، حبوناه : منحناه ، المشوب : الذي خالطه شـــئ ، نأيهـــا : بعـــدها وفراقها ، سقم : مرض ، ثريانا : اسم محبوبته ، أي التي تخصنا ، ذرى الدلو : أعـــلاه ، مقنـــع : مغن كاف)

جلستْ مجلسَ صِدْقٍ جمَعَتْ حُسْنًا و طِيبا
دمَّث المقعدَ و المــوطئَ ثُــرَّيَانا خَصيبا
أفْرَغَتْ فيه الثُّرَيَّا منْ ذرى الدلو سكوبا
مُقْنِعًا أنبتَ زَرْعًا ومَعَ الزَّرْعِ خُصُوبا

ننطلق في هذه القصيدة من البيتين الأخيرين ، وقد جاء التعبير عن أثر الماء (الدمع) بالتعبير الحقيقي (أنبت زرعا) وقد جاء هذا الأسلوب في سياق الحديث عن تلاق ليلة فراق ، ووصال ليلة نأي ، وساعة رضى ونعيم ، تعقبها ساعة ألم و جحيم ، حيث التقيا على الكثيب ، في ليلة مقمرة تذاكرا فيها أمر حبهما ، وساعات وصالهما ، وقد ألجمهما الحزن من شبح فراق يتوعدهما ، و يصارع أمنيتهما ، مما أسال دمعهما ، و سكب حزنهما ، و أراق مهجهما ، و ليت ليلتهما تدوم شهرا ، أو تمتد دهرا ، و ليت صبحها لم تشرق شمسه ، و لم يبد نوره ، ثم وصف ذلك المجلس الذي ضمهما ، وانسكب فيه دمعهما ، من صاحبته (ثريا) فأخصبت المقعد و الموطئ حبا و دمعا ، وقد كانت سخية الدمع كسخاء حبها ، فقد كان دمعا كافيا لإنبات الزرع ، ومعه الخصوب ، وكلام الشاعر مبني على المبالغة ، فالدمع بالغا ما بلغ لا ينبت شيئا بل لايبل من الأرض إلا قدرا ، يوشك أن ييبس ، غير أن الشاعر أراد أن يخدعنا بأن الدمع كان غزيرا جدا ، و قد جاء بالتعبير عن أثره بأسلوب الحقيقة (أنبت) و كأن الكلام محض حقيقة ، و كأنه ماء من الماء ، وما أجمله خداعا في مثل هذه المقاصد ، و تلك السياقات، و لو قال (أحيا) لكان

أسلوبا جمالا ، إذ يمكن حمل الكلام على زرع مجـــازي، و لـــو حــدث لكشف تلك المخادعة ، و هاتيك المراوغة ، من أجل ذلك كان التعـــبير بالأسلوب الحقيقي عن أثر السياق هو الألصق به.

٣ ــ قصيدة للمتنبي : ([1])

عُقْبى اليمين على عُقْبى الوَغَى ندمُ   مــاذا يزيدك في إقدامــكَ القَسمُ

وفي اليمين على ما أنت واعـــدُه   مــا دلّ أنَّك في الميعـــادِ مُتّهم
آلَ الفتى ابنُ شُمُشْقيقٍ فــأحنثَه   فتى من الضرب تُنْسَى عندَه الكَلِم
وفاعلٌ ما اشْتَهى يُغْنيه عن حَلِــفٍ   على الفعال حضورُ الفعلِ و الكَرَم
كلُّ السيوف إذا طال الضِّرابُ بها   يمسها غيرُ سيْفِ الــدولة السَّــأَم
لو كلَّت الخيلُ حـــتى لا تحمَّلَهُ   تحمّلَتْــه إلى أعْــدائه الهمَـــم
أين البطاريقُ و الحَلْفُ الذي حلفوا   بمفرقِ الملك و الزعمُ الذي زعموا
ولّى صوارمَه إكذابَ قولهـــم   فهُنَّ أَلْسنَةٌ أفـــواهُهـا القِمَــم
نـــواطــقٌ مخبراتٌ في جـــماجمهم   عنـــه بما جهلـــوا منه وما علموا
الراجـــعُ الخيـــلَ محفـــاةً مقوَّدةً   مـــن كـــل مثلِ وبَـــارٍ أهلها إرَم
كتَلٍّ بطْريقٍ المغرورِ ساكنُهـــا   بـــأن دارَك قنّسْرونَ و الأجَـــم
و ظنِّهم أنك المصباحُ في حَلَـــبٍ   إذا قَصَدْتَ سوَاها عادَها الظلَـــم
و الشمسَ يعْنـــونَ إلا أنهم جهلوا   و الـــموتَ يدعون إلا أنهم وهموا

([1]) القصيدة في التبيان في شرح الديوان لأبي البقاء العكبري ٤ / ١٥ : ٢٦ تحقيـــق مـــصطفى السقا و آخرين ط مصطفى الحلبي ١٩٧١م .

فلم تُتمَّ سروجٌ فتحَ نـاظـــرِها إلا وجيشُـــك في جفنيه مُزْدَحِم
و النقـــعُ يـــأخذُ حرَّانًا و بقعتَها و الشمسُ تُسْفـــرُ أحيانا و تلتثم
سحْبٌ تمـــر بحصن الران ممسكةً وما بها البخلُ لـــولا أنها نقَم
جيشٌ كـــأنك في أرض تُطاوله فالأرض لا أمَـــمٌ و الجيش لا أُمَمُ
إذا مضى علَمٌ منها بدا علَـــمٌ و إن مضى علَـــمٌ منه بدا علَم
و شُزَّبٌ أحمت الشّعرى شكائمَهـا ووسَّمتهـا عـلى آنافها الحَكَم
حتى وردن بسمنين بحيرتَـــها تَنشُّ بالمــاءِ في أشداقها اللّجُـم
و أصبحَـــتْ بقُرى هتريطَ جائلةً ترعى الظُّبا في خصيب نبْتُه اللّمَم
فما تركْـــنَ بها خُلْدا له بصرُ تحتَ التراب و لا بازا لـــه قدم
و لا هزبرا له من درعه لِبَـــدُ و لا مهـــاةً لها من شبهها حشَم
ترمي عـلى شفرات الباترات بهم مكامنُ الأرض و الغيطانُ و الأكَم
وجاوزوا أرسنانا معصمين بـــه وكيف يعصمهم ما ليس ينعصم ؟
وما يصـــدك عن بحر لهم سعةٌ وما يـــردك عن طـوْدٍ لهم شمم
ضربتَه بصدور الخيل حـــاملةً قوما إذا تلفوا قُدْمًا فقـد سلموا
تجفَّلَ الموجُ عن لبَّات خيلهـــم كمـــا تجفَّلُ تحت الغارة النَّعَم
عبرْتَ تقدُمُهُم فيه وفي بلـــد سكانه رِمَمٌ مسكُـــونها حُمَمُ
وفي أكفهم النارُ الـــتي عُبدت قبـل المجوس إلى ذا اليوم تضطرم
هنديةٌ إن تُصَغِّـــرْ معْشَرا صَغُروا بحدّها أو تعظّم معشرا عظُمـــوا
قاسمتَها تلَّ بِطْريقٍ فكـــان لها أبطالُها ولك الأطفـــالُ و الحُرَم
تلقى بهم زَبَدَ التيَّارِ مُقْـــرَبَةٌ على جحافلها مـــن نضجه رَثَمُ

دهْـــــمٌ فوارِسُها رُكّاب أبطنها   مكـــــــدودةٌ بقوم لا بها الألم
مـــن الجياد التي كدتَ العدوَّ بها   ومـــا لها خِلَــقٌ منها و لا شِيَم
نتاجُ رأيك في وقت على عجـــل   كلفـــظ حرف وعاهُ سامعٌ فَهِم
وقد تمنوا غداةَ الـــدرب في لَجَبٍ   أن يبصروك فلما أبصروا عَمُــوا
صدمتَهـــم بخميسٍ أنت غرَّتُه   و سمهريَّتُـــه في وجهــه غَمَم
فكــــان أثبتَ ما فيهم جسومُهُمُ   يسقطن حـــولَك و الأرواحُ تنهزم
و الأعوجيَّةُ مــلءَ الطُّرق خلفهم   و المشرفيَّةُ مـــلءَ اليوم فوقهم
إذا تـــوافقت الضَّرباتُ صاعدةً   توافقت قُلَلٌ في الجـــو تصطدم
و أسلـــم ابن شمشقيق أَليَّـــتَـــه   إلَّا انْثَنى فهو ينأى وهي تبتســـم
لا يأمُـــلُ النفسَ الأقصى لمهجته   فيســـرقُ النفسَ الأدنى و يغتنم
تـــرد عنه قنا الفرسان سابغةٌ   صـــوبُ الأسنَّة في أثنائها دِيَم
تخط فيها العـــوالي ليس تَنْفذُها   كـــأن كل سنانٍ فوقها قلم
فلا سقى الغيثُ ما واراهُ من شجرٍ   لو زلَّ عنه لوارَتْ شخْصَه الرخم
ألهى الممالكَ عن فخرٍ فقلـــتُ به   شـــربُ المدامة و الأوتارُ و النغم
مقلَّـــدا فوق شكر الله ذا شُطَبٍ   لا تُستَـــدامُ بأمضى منهما النِّعم
ألقت إليك دماءُ الـــروم طاعتَها   فلو دعـــوتَ بلا ضرب أجاب دم
يسابقُ القتــــلُ فيهم كلَّ حادثة   فما يصيبهُمُ مـــوتٌ و لا هَـــرَم
نفتْ رقـــــادَ عليٍّ عن محاجره   نفْسٌ يفـــرِّج نفسا غيرَها الحُلُم
القائمُ الملكُ الهادي الذي شهدتْ   قيامَه وهُداهُ العُـــرْبُ و العجـــم
ابنُ المعفَّر في نجـــدٍ فـــوارسَها   بسيفـــه ولـــــه كُوفانُ و الحرم

لا تطلبنَّ كريما بعـــــــد رؤيته إن الكـــــرام بأسخاهم يدا ختموا
و لاتبـــــالِ بشعـــرٍ بعـــد شاعره قد أُفْسِدَ القولُ حتى أُحْمِد الصَّمَم

وهي آخر قصيدة قالها بحضرة سيف الدولة ، وقد قالها في انتصار ســـيف الدولة على ابن شمشقيق ، بطريق الروم ، وكان سيف الدولة قائما علـــى ثغر من ثغور المسلمين ، وكان ذا شجاعة و مروءة ونجدة ، وذا ديـــن و عروبة ونخوة ؛ لذا أحبه المتنبي حبا صادقا ، ورأى فيه ذاته وطموحاتـــه ، وكان كل هذا من دواعي إخلاص المتنبي له ، وكان كل انتصار لـــسيف الدولة يروي غلة المتنبي ، و كان يسره ما يسر سيف الدولة ، و يحزنه ما يحزنه ، وكان ابن شمشقيق بطريق الروم قد حلف أن يلقى سيف الدولـــة في بطارقته ، ففعل فخيب الله ظنه ، و أتعس جده فكانت هذه القـــصيدة التي وصفت انتصار سيف الدولة الساحق ، وجاء مطلعها حكمة (عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم) ينعي به على بطريق الروم ، ويدله علـــى تعاسته حين أقسم ، وخيبة أمله حين حاول تحقيق قسمه ، ثم اســـتطرد في مدح سيف الدولة ،ووصف سيفه ، وهمته ، و انتصاراته ، فهـــو رجـــل فعال ، و إن شئت معرفة خبر صوارمه فانظر جماجم أعدائه تخبرك عـــن ذلك ، و أن غرور بطريق الروم ما حماه و ما نفعه ، و أنه أخطـــأ خطـــأ فادحا حين قصد سيف الدولة ، كيف لا ؟ وقاصده إنما يقصد الـــشمس بعد مكانة ، وعزة و منعة ، وقاصده إنما يقصد الموت ، فجيشه مـــزدحم في جفن عدوه ، والشمس تنكسف من طلعته ، و لا تـــسقي الـــسحب أرضا قصدها سيف الدولة بالحرب ، ثم انتقل بعـــد ذلـــك إلى وصـــف

المعركة بتفصيل طويل ، و تصوير لا تتقنه إلى يد صناع خبر مداخل الكلام ومخارجه ، وسبيل نسجه وحبكه ،واصفا قوة سيف الدولة ، و الهزيمة المنكرة التي كبدها بطريق الروم الذي أودى به غروره ، و أهلكه لسانه حين آلى أن يلقى سيف الدولة إلى أن قال ناظرا إلى مطلع القصيدة عاقدا كلامه بها في البيت الثاني و الأربعين :

و أسلم ابن شمشقيق أَلِيَّتَه ... إلَّا انْثنى فهو ينأى وهي تبتسم
لا يأمُلُ النفسَ الأقصى لمهجته ... فيسرقُ النفسَ الأدنى و يغتنم
تردُ عنه قنا الفرسان سابغةٌ ... صوبُ الأسنَّة في أثنائها دِيم
تخط فيها العوالي ليس تَنْفذُها ... كأن كل سنانٍ فوقها قلم
فلا سقى الغيثُ ما واراهُ من شجرٍ ... لو زلَّ عنه لوارَتْ شخْصَه الرخم

واصفا حال القائد الحالف في أول القصيدة ، و القائد آخر من يفر ، و آخر من يتنازل عن أيمانه ، وكأن القصيدة كلها قصة يمين حلفها بطريق الروم، وكيف تلاشت يمينه ، وانتهت هذه النهاية فقد انتهت القصة بأن أسلم أليته (أي : يمينه التي حلفها) غير أن المتنبي بث الحياة في هذه اليمين ، و جعلها تقف ساخرة من صاحبها (ابن شمشقيق) بينما هو يجد في الهرب نجاة بروحه ، و طلبا لحياة خسيسة يغتنم فيها النفس القريب ، و لا أمل فيها في نفس بعيد ، وما أحقر النفس التي تطلب هذه الحياة ، لكن أنى له غير هذا من أمل، وقد رأى رماح سيف الدولة

تتساقط على دروعه السابغات تساقط المطر ، حتى لطخت هذه الدروع بالدماء ، و لم تكن دروع بطريق الروم ضعيفة ، فسيف الدولة لا حديث عن انتصار له على جيش ضعيف ، و إنما هي دروع سابغات لم تستطع رماح سيف الدولة أن تنفذها ، و إنما لطختها بالدماء وانتصرت عليها رغم منعتها ، فقد كان بطريق الروم ذا بأس شديد و سلاح عنيد ، فالظفر عليه هو الظفر ، و النصر عليه هو النصر ، لكن ما رأيك بقصة يمين أودت بصاحبها ، وهو بهذا القدر من القوة و المنعة إلى يفر — وهو الذي حلف ليهلكن سيف الدولة — وأن يواري نفسه بالشجر،و يختبئ فيه ؟ ولولا الشجر لما كانت له حياة ، و لكان طعاما للطير تنعم به و بيمينه ذاك !

و الذي يعنينا بعد هذه الإطلالة على القصيدة أن نفسر سر اصطفاء الأسلوب الحقيقي تعبيرا عن أثر الماء في قوله : فلا سقى الله ما واراه من شجر . . . . و لم لم يقل : فلا أحيا الله ما واراه من شجر ؟ والذي أبصره أن السياق هو الذي قضى بأن يأتي الأسلوب الحقيقي تعبيرا عن أثر الماء ؟ وكنت قد حدثتك عن حب المتنبي سيف الدولة ، و أنه يشفيه و يروي غلته ما يشفي غلة سيف الدولة و يروي ظمأها ، وهذا هو السر هنا في الدعاء على الشجر بعدم السقيا ، لأن السقي ضد الظمأ فقد دعا بالظمأ على الشجر لما كان سببا في عدم إرواء ظمئه من ذلك البطريق ، وهو مما يكشف عن مدى كراهية المتنبي لكل من يكرهه سيف الدولة ، وشئ آخر هو أن النفس حين تدعو لنفسها أو تدعو على أحد ،

تنجر تلقائيا إلى الأساليب الحقيقية الصريحة الواضـــحة ، كـــشفا عـــن مطالبها، وطلبا لتحقيق طموحاتها وآمالها، و إنني أرى أسلوب الدعاء هنا من أوقع ما يكون تناسبا مع أسلوب القصيدة الذي يتحـــدر تـــشفيا في بطريق الروم ، لكنه لم ينته النهاية التي كان يتمناها المتنبي بإبادة بطريـــق الروم ، لذا جاء أسلوب الدعاء ثورة غضب على الشجر ، ولو قال: فلا أحيا الغيث ما صلح ، لأن الحياة يقابلها الموت ، و لاينفع مع الميت دعاء عليه ، كما أنه لا يكشف عن الظمأ الذي أحسه المتنبي ، لكل هذا وغيره مما لم أقع عليه كان الأسلوب الحقيقي ، بهذا السياق ألصق ، و له أنسب.

ثانيا : الأسلوب المجازي

نصطفي أبياتا لحسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ وقصيدة لأبي العتاهية الشاعر الزاهد ، و أخرى لشاعر الحكمة لشيخ المعرة أبي العــلاء المعري ، للكشف عن أثر السياق في اصطفاء الأسلوب المجازي تعبيرا عن أثر الماء.

١ ــ مع أبيات لحسان بن ثابت ــ رضي الله عنه .([١])

قال : مادحا العباس ــ رضي الله عنهما .

سأل الإمامُ ،وقــد تتابعَ جــدْبُنا فســقى الغمـــــامُ بغُرَّة العباس
عمُّ النبي ، و صِنْـــوُ والدِه الذي ورث النبيَّ بــــــذاك دون الناس
أحيا الإلــهُ بـــه البلادَ فأصبحت مخضـــرَّةَ الأجناب بعد اليَـــاس

تكشف لنا السنة المطهرة عن سياق الحال لهذه الأبيات ، فقــد روى البخاري ــ رحمه الله ــ بسنده عن أنس ــ رضي الله عنه ــ " أن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ كان إذا قحطوا استسقى بالعبـــاس بن عبد المطلب ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ــ صـــلى الله عليه و سلم ــ فتسقينا ، و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاســقنا ، قــال : فيسقون " ([٢])

([١]) الأبيات في الموسوعة الشعرية (Cd)

([٢]) رواه البخاري في صحيحه أبواب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ، وكتاب المناقب باب ذكر العباس بن عبد المطلب .

وقد ذكر ابن حجر أن ذلك كان عام الرمادة ، و ذكر ابن سعد وغيره أن عام الرمادة كان سنة ثمان عشرة ، وكان ابتدؤه مصدر الحاج منهم ، ودام تسعة أشهر ، وقد سمي العام بالرمادة لما حصل من شدة الجدب ، فاغبرت الأرض جدا من عدم المطر ([1])

كشف سياق الحال إذا عن حال جدب اشتدت ؛ لدرجة أن سمي عام الرمادة ، و استمرار جدب الأرض لمدة تسعة أشهر من أشق الأمور على أمة أكثر رزقها الرعي و الزراعة ، فقد كانت الأرض في حال أشبه بالميت ، وهو ما توفر على بيانه سياق المقال أيضا خذ من ذلك قوله : (وقد تتابع جدبنا) وانظر ما في التتابع من الكثرة و الغزارة ، وما في الجدب من القحط ، و انقطاع الأنفس ، وكأنه مصرٌّ ـــ كما توحي به الإضافة ـــ على مهاجمة أرضهم و إهلاك زرعهم و أنفسهم و دوابهم ، فقد كانت الأرض إذا في حال لا يصلح معها التعبير الحقيقي عن أثر الماء على الإطلاق ؛ فالتعبير المجازي لاءم سياق الحال ، و سياق المقال، و كشف عن شدة ما كانوا فيه ، وعن قدر فرحهم بالغيث الذي أتاهم على شوق طويل و إلحاح في الطلب ، و لو قال : هنا : أنبت الإله به البلاد لفسد المعنى ، و لما لاءم سياق الحال ، و لا سياق المقال ، وقد دلا ـــ كما أسلفنا ـــ على أن الأرض كانت أشبه بالميت في شدة جدبها ، وعموم القحط فيها ، ألا تراه قال : مخضرة الأجناب بعد الياس ، وما بالك بقوم في مثل هذه المكانة من الإيمان و الدين يصل الحال بهم إلى

([1]) فتح الباري ٣٩٨/٢ .

درجة اليأس ، ما من ريب في أنه كان قحطا شديدا ، لكل هـذا كـان الأسلوب المجازي هو الأليق بهذا السياق .

٢ ــ قصيدة لأبي العتاهية ([1])

على رســـــول الله مني السلامُ   ما كان إلا رحمةً للأنــــام
أحيـــا به الله قلــــوبا كما   أحيا مواتَ الأرض صــوبُ الغمام
أكرم به للخلق مـــن مبلــغٍ   هـــادٍ و للناسِ به من إمام
و أصبح الحقُّ بــــه قائما   و أصبــح الباطلُ دَحْـــضَ المقام
كان رســـــول الله يدعو إلى   مَــدْرجةِ الحــق و دارِ الســلام
يا عينُ قـــد نمتِ فاستنبهي   ما اجتمــع الخوفُ و طيبُ المنام
أكـره أن ألقـــى حمامي و لا   بــدَّ لحيٍّ من لقـــاء الحمـام
لابد من مــــوت بدار البلى   و الله بعــــد الموت محيي العظام
يا طـــالب الدنيا و لذاتها   هل لك في ملك طويـــلِ المقام
مــن جــاورَ الــرحمــنَ في دارِه   تمــتْ لـــه النعمةُ كــلَّ التَّمام

هذه القصيدة قال الشاعر الزاهد ؛ مدحا لرسول الله ــ صــلى الله عليه و سلم ــ وقد كان محبا، وعاشقا له ــ صلى الله عليه و سـلم ــ وقد جاء أثر الماء في صورة تشبيهية :

أحيـــا به الله قلــــوبا كما   أحيا مواتَ الأرض صــوبُ الغمام

([1]) القصيدة في الموسوعة الشعرية (Cd)

وقد وقع أثر الماء مشبها به بأسلوب مجازي (أحيا) (موات الأرض) ومجيئ المشبه به بأسلوب مجازي ، يتعانق مع السياق المقالي من جهة ، حيث جاء المشبه بأسلوب مجازي (أحيا به الله قلوبا) و لو قال في المشبه به : كما أنبت جدب الأرض صوب الغمام ، لفسد الكلام ، وذهب ماء المعنى ، كما أن مجيئ الأسلوب الحقيقي تعبيرا عن أثر الماء يتعاند من جهة أخرى مع سياق الحال ، و ذلك أن مجيئه ــ صلى الله عليه و سلم ــ كان على فترة من الرسل ، وقد عم الموات أهل الأرض ؛ لأن حقيقة الحياة إنما تكون بالإيمان و الاتصال بالله ، لا بالطعام و الشراب و الانهماك في اللذات ، و إلا فما الفرق بين الإنسان وغيره من الدواب ؟

كما أن الأسلوب المجازي يكشف عن مراد الشاعر في بيان أثره ــ صلى الله عليه و سلم ــ في الوجود ، وقد بنى أبو العتاهية قصيدته على الضدية تأمل (أحيا ــ موات) (الحق ــ الباطل) (الخوف ــ طيب المقام) (موت ــ محيي) إلى آخر ذلك ، وهذا يعكس ، أن العلاقة الضدية مرتكز للبيان في قصيدة الشاعر ، للكشف عن جهة الحسن ببيان الضد ؛ و الكشف عن الأثر ببيان الحالين على وجه التضاد هو الألصق بمثل هذه السياقات ؛ لذا جعل حال الناس قبل البعث كحال موات الأرض ، وحال بعثه ــ صلى الله عليه و سلم ــ بحال صوب الغمام حينما يترل بأرض أهلكها الجدب ، و عمها القحط ، تأمل الرحمة التي نشرها الغمام على موات الأرض ، وهو أثر محسوس

تشاهده في اخضرار النبات ، و تمايله زهوا ، و الأمن النفسي الناتج عنه ، تعرف ذلك حين تقرأ قول ربنا (الذي أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف) (قريش / ٤) فخوف النفس من الهلاك أشد عذابا من وقـــوع الهلاك ذاته؛ لذا كان صوب الغمام رحمة ، إذا أيقنت بكل هذا ــ و أنت لا بد موقن ؛ مما تراه محسوسا ــ أيقنت بحياة القلوب التي كانت حـــيرى متلددة ، تتجه للأصنام حينا بالعبادة ، و للنجوم حينـــا ، و للكواكـــب أحيانا أخر، و الحيرة من أشق ألوان العذاب ، وكان مجيئه ــ صـــلى الله عليه و سلم ــ إنقاذا لهذه القلوب من حيرتها ، و رحمة لها مـــن عـــذابها الذي كابدته الأرض زمنا طويلا قبل أن يظلها مجيئه الشريف ــ صلى الله عليه و سلم ــ فقد جمع الناس على إله واحد ، و جعل قبلتهم واحـــدة وهداهم ، لذا كان مجيئه أشد إحياء لهم من مجيئ الغمام ، لكل ذلك كان مجيئ الأسلوب المجازي ؛ تعبيرا عن أثر الماء هو الألصق بهـــذا الـــسياق ، لأنه هو وحده المناسب لسياقي الحال و المقال .

٣ ــ قصيدة لأبي العلاء المعري ([1])

الـــــدهر يصمتُ وهو أبلغُ ناطقٍ من مُـــوجزٍ نَـــــدِسٍ ومِن ثَرثَار
يمشي عـــــــــلى قـــدمين مـــن ظَلمائه ونهـــارِه مـــا هَمَّتـــا بعِثَـــار

([1]) القصيدة في الموسوعة الشعرية (Cd) (المفردات : ندس : يلذع بالكلام بصوت خفي ، تسور : تثب وتثور وتغضب ، حتش : أي دققن ؛ لأن الحث المدقوق من كل شئ ، لبانة : حاجة ، لبون : هي التي نزل اللبن في ضرعها ، دثار : في الأصل الثوب الذي يكون فوق الشعار)

ضنَّتْ يــداهُ و تلك منه سجيَّــةٌ أن تُجْريــا أحــدا عــلى الإيثار
و العيشُ ضدُّ القولِ يُحْمدُ طــولُه و يُــذَمُّ هــادي القومِ في الإكثار
و السَّيْلُ إن بعثَ النباتَ من الثَّرَى فلَــهُ بحَظْــرك سيِّئُ الآثــار
قَتَلَتْكُــمُ الدنيــا فهــلْ من قائمٍ في أمِّكُــم يُــرضي بمطلَبِ ثــار
نُــوَبٌ تَسُورُ على ابنِ آدمَ خِلْتُها صُيُدًا حُشِنَ عــلَى أغَــنَّ مُثَــار
و إذا تَقَضَّــتْ سَــاعَــةٌ بلُبَانَــةٍ فكــأنَّ فائتَهــا لَبُــونُ دثَــار

هذه القصيدة من قصائد الحكمة ، وما أكثرها عند شيخ المعرة ، وقد أقام قصيدته على ذم الثرثار الذي لم يتعظ بالدهر وحادثاتــه ، و لا الزمان وصروفه ، فالدهر أبلغ ناطق مع صمته ، وهذا جمع بين ضــدين فالدهر صمته أبلغ من نطق البليغ الذي يوجز الكــلام ، و يلــذع بــه بصوت خفي ، و أبلغ من الثرثار الذي لا يمل الكلام ، ثم استطرد شــيخ المعرة في تعديد مساوئ الثرثار ، فقد تعدت الثرثرة لسانه إلى جوارحــه ، فهو يمشي ليلا ونهارا ، لا يتوقف عن السير على الإطلاق مادامت قدماه لم تهما بعثار ، وما دامتا تنقدان له ، وهو كثير الكلام قليل الفعال ، فيداه ضنينتان ، و البخل من سجيته،وليس الإيثار من طبعه، و أنى له ذلك ؟ ! وعند الثرثار أن طول العمر يحمد ما كان القول ضد الفعــل ، وهــو في الوقت ذاته يذم من يهدي القوم ، و يرميه بالإكثار في الكلام ، كما قالوا : رمتني بدائها وانسلت ، ثم انتقل إلى بيت القصيد :

و السَّيْلُ إن بعثَ النباتَ من الثَّرَى فلَــهُ بِحَظْــرك سيِّئُ الآثــار

إن الثرثار من شيمته إنكار المعروف ، ما لم يصبه منه شئ، حتى الغيث إن كان سيلا ، وصادف أرضا أشبه بالميت، فأحيا أهلها، و زرعها ، وعم خيره ، وانتشر نفعه ، لكن هذا الغيث له أسوأ الآثار عنده إذا منع خيره عنه ، وهو غاية إنكار المعروف، و الملحوظ أنه قال في البيت (بعث) و البعث يجري على معان كثيرة في اللغة منها : الإرسال ، ومنها الإثارة و الإيقاظ من النوم ، ومنها الإحياء و النشر من القبور ([1]) و الأخير هو المراد هنا ، و استخدمه هنا لأنه يطلق في القرآن على النشر بعد الموت ، واستخدام الأسلوب المجازي هنا هو الملائم لهذا السياق ، لأنه ذو أثر بالغ في بيان أثر السيل الذي ينتج من الخير ، ما لا يحيط به حد ، و لا يحصيه عد ، لقدرته الخارقة،و إظهار الأثر بهذه المبالغة يكشف عن سوء طباع الثرثار الذي ينكر خيرا كهذا ، و لو قال : ينبت ما لاءم هذا السياق ، وما كشف عن سوء طباع الثرثار ، كما أن التعبير المجازي يلائم ما بعده أيضا ، فقد قال بعد ذلك : قتلتكم الدنيا ، ومن قتلته الدنيا لايرضيه منها إلا ما أصاب منها ، و إن كان الخير عميما فلا خير فيه ما لم يصب منه شيئا .

([1]) ينظر المفردات في غريب القرآن مادة (ب ع ث) و الكليات لأبي البقاء الكفوي ٢٤٤ .

الخاتمة

الحمد لله على المبتدا و المنتهى ، و الصلاة و السلام على نبينـــا المجتبى ، وبعد هذا الإبحار نلقي عصا التسيار ، ونوجز أهم نتائج الدراسة فيما يلي : ــ

١ ــ أن القدماء عرفوا السياق تطبيقا ، وقد حدد المحدثون المصطلح بما لم يخرج عن تطبيقات القدماء .

٢ ــ أن الكتاب و السنة سياق واحد عند القدماء ، وقد بينوا أنه لابـــد من إبصارهما عند فقه أي من نصوصهما .

٣ ــ أن أسباب النزول في القرآن ، و أسباب الورود في السنة يشكلان جزءا من السياق ، و لا يشكلان السياق كلـــه ، و أنـــه لا بـــد مـــن استحضارهما عند فقه النصوص .

٤ ــ أن علماء المناسبات ، و مشتبه النظم عنوا عناية بالغة بالكشف عن أثر السياق في اصطفاء الألفاظ و الأساليب .

٥ ــ أن القدماء عرفوا الأسلوب على النحو الذي ذكره المحدثون ، وقد عنوا ببيان أنواعه .

٦ ــ أن مقولة ((وقد أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، و أن الكناية أبلغ من التصريح)) مقولة معيارية للأساليب بمنأى عن ســـياقاتها،

و أن المراد المبالغة ، وقوة المعنى ، و أن بلاغة الأساليب توزن بملاءمتـــها السياق الذي غرست فيه .

٧ ـــ أن القرآن الكريم لا تفاوت في بيانه ، و أن كل مـــا ورد بليـــغ في موضعه لا يصلح سواه في مكانه وهذا هو ما عليه الجمهور مـــن علمـــاء المسلمين .

٨ ـــ أن أسلوب المجاز يأتي في الذكر الحكيم ؛ تعبيرا عن أثـــر المـــاء في سياقات إثبات الألوهية ، و البعث غالبا ، و أن أسلوب الحقيقة يـــأتي في مقامات إثبات الربوبية ، والقدرة غالبا .

٩ ـــ أن بيان السنة يأتي فيه أسلوب المجاز تعبيرا عن أثر الماء في مقامـــات الجدل حول البعث ، و أسلوب الحقيقة يرد في مقامات خالية من الجدل.

١٠ ـــ أن الشعراء ـــ في حدود ما تناولته الدراسة ـــ يوردون أســـلوب المجاز ؛ تعبيرا عن أثر الماء حين يقتضي السياق المبالغة في المعـــنى ، علـــى العكس من الأسلوب الحقيقي .

هذا ، و إني استغفر الله العظيم ، و إن الله غفور رحـــيم ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ، و صلى الله على ســـيدنا محمـــد، و على آله و صحبه و أمته .

المصادر و المراجع

١. أحكام القرآن لابن العربي تحقيق محمد علي البجاوي ط دار الفكر ، بيروت دون تاريخ .
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ط دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .
٣. أسباب النزول للواحدي النيسابوري ط مكتبة المتنبي دون تاريخ.
٤. أساس البلاغة للزمخشري تحقيق عبد الرحيم محمود ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٢هـ .
٥. أصول البيان العربي محمد حسين على الصغير،رؤية بلاغية نقدية معاصرة ، ط دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٦م .
٦. إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف ١٩٦٣م.
٧. إعجاز القرآن الجزء السادس عشر من المغني في أبواب التوحيد و العدل للقاضي عبد الجبار تحقيق محمد أمين الخولي ط وزارة الثقافة و الإرشاد القومي مصر ١٩٦٥ م .
٨. إعجاز القرآن و البلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي ط المقتطف ١٩٢٨ م .

٩. إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للأبي ط الرياض دون تاريخ
١٠. أنوار التنزيل و أسرار التأويل للقاضي البيضاوي بهامش حاشية محيي الدين شيخ زادة ط دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ.
١١. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط الحلبي بمصر ١٣٨٨هـ .
١٢. الأسلوب للأستاذ أحمد الشايب ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٩١م .
١٣. الإشارات و التنبيهات لمحمد بن علي الجرجاني تحقيق د / عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر .
١٤. الأطول للعصام ط المطبعة السلطانية ١٢٨٤هـ .
١٥. الإكسير في علم التفسير للطوفي تحقيق د / عبد القادر حسين ط مكتبة الآداب ١٩٧٧ م .
١٦. بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق د / محمد زغلول سلام ، د / محمد خلف الله ط دار المعارف ١٩٨٦م .
١٧. البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي تحقيق د / عبد الستار غدة ط دار الصحوة ١٤١٣هـ .
١٨. البرهان في علوم القرآن للزركشي ط دار المعرفة بيروت ١٩٧٣م .

١٩. البرهان في تناسب سور القرآن لابـن الـزبير الثقفـي تحقيـق د / سعيد الفلاح ط جامعة قار يونس ١٩٨٨م.
٢٠. البلاغة و الأسلوبية د / محمد عبد المطلب ط مكتبة لبنان بيروت ١٩٩٤م.
٢١. البلاغة التطبيقية د / أحمد موسـى ط دار المعرفـة ، القـاهرة ١٩٦٣م .
٢٢. البيان و التبيين للجاحظ ط دار الكتب العلميـة بـيروت دون تاريخ.
٢٣. البيان بين عبد القاهر و السكاكي د / على البـدري حـسين ط السعادة .
٢٤. البيان في ضوء أساليب القرآن د / عبد الفتـاح لاشـين ط دار المعارف ١٩٨٥م.
٢٥. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صـقر ط دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤م .
٢٦. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للإمام أبي العلى ، لمحمد عبد الرحمن المباركفوروي ط دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥ هـ .
٢٧. تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كـثير ط عيـسى الحلـبي دون تاريخ.
٢٨. تفسير المراغي للمراغي بك ط دار الكتـب العلميـة بـيروت ١٤١٨هـ .

٢٩. تقرير الدمنهوري على متن الأخضري ط مصطفى الحلبي .
٣٠. تلخيص المفتاح للخطيب القزويني مطبوع أعلى شروح التلخيص ط السعادة ١٣٤٢هـ .
٣١. التبيان في شرح الديوان (ديوان المتنبي) لأبي البقاء العكبري تحقيق مصطفى السقا و آخرين ط مصطفى الحلبي ١٩٧١ م .
٣٢. التحرير و التنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للنشر ١٩٧٤ م .
٣٣. التصوير البياني د / محمد أبي موسى ط وهبة ١٤٠٠ هـ .
٣٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ط الريان ١٤٠٧هـ
٣٥. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط دار الغد ثالثة .
٣٦. الجامع الصحيح للترمذي ضمن برنامج مضغوط (Cd) الحديث الشريف إصدار شركة صخر ثان .
٣٧. حسن الصنيع للشيخ محمد البسيوني البيباني ط التقدم العلمية ١٣٩٢هـ .
٣٨. حاشية الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ط السعادة ١٣٤٢ هـ .
٣٩. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين للشيخ أحمد بن محمد الصاوي ط دار الجيل بيروت دون تاريخ .
٤٠. حاشية المنياوي على شرح حلية اللب المصون ط مصطفى الحلبي ١٣٥٧هـ .

٤١. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير القاضي البيضاوي المسماة (عناية القاضي و كفاية الراضي) ط دار صادر بيروت دون تاريخ.
٤٢. الحقيقة و المجاز في القرآن الكريم د / على محمد حسن العماري ط السعادة ١٣٩٤هـ .
٤٣. خزانة الأدب للبغدادي تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط الخانجي بمصر ١٤٠٩هـ .
٤٤. خزانة الأدب لابن حجة الحموي تحقيق عصام شعيتو ط بيروت ١٩٩١م .
٤٥. خلاصة المعاني لمحمد بن الحسين المفتي تحقيق د / عبد القادر حسين ط الناشرون العرب دون تاريخ .
٤٦. الخصائص لابن جني تحقيق محمد على النجار ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م .
٤٧. دراسة الأسلوب بين المعاصرة و التراث د / أحمد درويش ط مكتبة الزهراء بمصر دون تاريخ .
٤٨. دراسات في فقه اللغة د / صبحي الصالح ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٩٧م .
٤٩. دفاع عن البلاغة للأستاذ أحمد حسن الزيات ط عالم الكتب مصر ١٩٦٧ م .

٥٠. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد رشيد رضا ط دار المعرفة بيروت ١٤٠٢ هـ ، وتحقيق العلامة محمود محمد شاكر نشر مكتبة الخانجي ١٩٨٤ م .

٥١. دلالة السياق بين التراث و علم اللغة الحديث د / عبد الفتاح البركاوي ط ، الجريسي ١٩٩٣ م .

٥٢. ديوان عمر بن أبي ربيعة تحقيق د / فايز محمد ط دار الكتاب العربي بيروت ١٤١٢ هـ .

٥٣. روح المعاني للآلوسي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ .

٥٤. الرسالة للإمام الشافعي ط الحلبي بمصر .

٥٥. سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي،ط،دار الكتب العلمية١٩٨٢م.

٥٦. سنن أبي داود للإمام أبي داود ، ضمن برنامج مضغوط (Cd) الحديث الشريف إصدار شركة صخر ثان .

٥٧. سنن ابن ماجة للإمام ابن ماجة ضمن برنامج مضغوط (Cd) الحديث الشريف إصدار شركة صخر ثان .

٥٨. سنن الدارمي للإمام الدارمي ضمن برنامج مضغوط (Cd) الحديث الشريف إصدار شركة صخر ثان .

٥٩. شرح المنتقى على موطأ الإمام مالك للباجي ط السعادة بمصر ١٣٣٢هـ .

٦٠. الشعر و الشعراء لابن قتيبة تحقيق مفيد قميحة ، ط ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥ هـ .

٦١. صحيح البخاري للإمام البخاري ضمن برنامج مضغوط (Cd) الحديث الشريف إصدار شركة صخر ثان .
٦٢. صحيح مسلم للإمام مسلم ضمن برنامج مضغوط (Cd) الحديث الشريف إصدار شركة صخر ثان .
٦٣. الصناعتين لأبي هلال العسكري ط دار الكتب العلمية بيروت.
٦٤. الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ط عيسى الحلبي ١٤٠٨هـ .
٦٥. الطراز المتضمن لحقائق البلاغة و علوم الإعجاز للعلوي ط المقتطف بمصر ١٩١٤م .
٦٦. عروس الأفراح للسبكي ضمن شروح التلخيص ط السعادة ١٣٤٢هـ .
٦٧. علم الفصاحة العربية مقدمة في النظرية و التطبيق د / محمد على رزق الخفاجي ط دار المعارف ١٩٨٢ م .
٦٨. علم الأسلوب مبادئه و إجراءاته د / صلاح فضل ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م .
٦٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ط دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .
٧٠. عون المعبود شرح سنن أبي داود للعلامة أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دون تاريخ .

٧١. العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده لابن رشيق القـيرواني ط أمين هندية ١٩٢٥ م .
٧٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العـسقلاني ط دار إحياء التراث العربي بيروت دون تاريخ .
٧٣. فنون بلاغية د / أحمد مطلوب ط دار البحوث العلمية الكويـت ١٩٧٥ م .
٧٤. في النص الأدبي د / سعد مصلوح ط عين للدراسات و البحـوث بمصر ١٤١٤هـ .
٧٥. فيض القدير شرح أحاديث الجامع الصغير للعلامة عبد الرؤوف المناوي ط دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩١هـ .
٧٦. الفرائض و شرح آيات الوصية للسهيلي تحقيق د / محمد إبراهيم البنا ط جامعة قار يونس ليبيا ١٤٠٠ هـ .
٧٧. الفوائد المنسوب لابن القيم ط مكتبة المتنبي دون تاريخ .
٧٨. القرآن و الصورة البيانية د / عبد القادر حـسين ط دار نهـضة مصر دون تاريخ .
٧٩. القاموس المحيط للفيروز آبادي ط بيروت دون تاريخ .
٨٠. الكشاف للزمخشري ط مصطفى الحلـبي ١٣٩٢هـ و ط دار الفكر بيروت دون تاريخ .
٨١. الكليات لأبي البقاء الكفوي تحقيق د / عدنان درويش ، ومحمـد المصري ط مؤسسة الرسالة سورية ١٤١٣هـ .

٨٢. لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الـــدين البغـــدادي المـــسمى (تفسير الخازن) تحقيق عبد السلام شاهين ط دار الكتب العلميـــة بيروت ١٤١٥هـــ .

٨٣. لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، ط الحلبي .

٨٤. لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف بمصر .

٨٥. اللغة الشاعرة لعباس محمود العقاد ط مكتبة غريب ، مصر.

٨٦. اللغة العربية معناها و مبناها د / تمام حسان ط الهيئـــة المـــصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م .

٨٧. مختصر المعاني للسعد التفتازاني على تلخيص المفتاح ط مـــصطفى الحلبي أخيرة .

٨٨. مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة و النقد الحديث د / عبد الغني بركة ط دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩ م .

٨٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل ضـــمن برنـــامج مـــضغوط (Cd) الحديث الشريف إصدار شركة صخر ثان .

٩٠. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور لبرهان الدين البقاعي تحقيق د / عبد السميع حسنين ط الرياض ١٤٠٨هـــ .

٩١. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري ط عيسى الحلبي

٩٢. مفتاح العلم للسكاكي تحقيق نعيم زرزور ط دار الكتب العلميـــة ١٤٠٣هـــ .

٩٣. مفاتيح الغيب للفخر الرازي ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٥هـ .
٩٤. مقدمة ابن خلدون ط دار العودة بيروت دون تاريخ .
٩٥. مقدمة في شرح نهج البلاغة للبحراني تحقيق د / عبد القادر حسين ط دار الشروق ١٩٨٧ م .
٩٦. مكمل إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للسنوسي ط الرياض دون تاريخ .
٩٧. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد لأحمد بن الزبير الثقفي الغرناطي تحقيق د / سعيد الفلاح ط دار الغرب الإسلامي ١٤٠٣هـ .
٩٨. منهاج البلغاء و سراج الأدباء لحازم القرطاجني تحقيق محمد بن الحبيب الخوجة ط دار الكتب الشرقية تونس دون تاريخ .
٩٩. مناهج البحث في اللغة و الأدب د / تمام حسان ط الأنجلو بمصر ١٩٩٠م .
١٠٠. موطأ الإمام مالك ضمن برنامج مضغوط (Cd) الحديث الشريف إصدار شركة صخر ثان .
١٠١. مواهب الفتاح شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ط السعادة ١٣٤٢ هـ .
١٠٢. المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر لابن الأثير تحقيق د / أحمد الحوفي ، و د / بدوي طبانة ط دار نهضة مصر .

١٠٣. المجاز في اللغة و القرآن الكريم بين الإجازة و المنع د / عبد العظيم المطعني ط وهبة بمصر ١٩٨٥م .
١٠٤. المحرر الوجيز لابن عطية ط المجلس العلمي بفارس ١٣٩٧هـ .
١٠٥. المزهر في علوم اللغة و أنواعها للسيوطي تحقيق جاد المولى وآخرين ط بيروت ١٩٨٦م .
١٠٦. المصباح في المعاني و البيان لابن مالك تحقيق د / حسني عبد الجليل ط مكتبة الآداب دون تاريخ .
١٠٧. المطول لسعد الدين التفتازاني ط تركيا دون تاريخ .
١٠٨. المعجم الوسيط ط مجمع اللغة العربية بمصر .
١٠٩. المعجم الأدبي لجبور عبد النور ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٤م .
١١٠. المعيار في نقد الأشعار لجمال الدين الأندلسي تحقيق د / عبد الله هنداوي ط الأمانة ١٩٨٧ م .
١١١. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق محمد سيد كيلاني ط مصطفى الحلبي ١٩٦١ م .
١١٢. المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم للقرطبي ط دار ابن كثير دمشق ١٤١٧هـ .
١١٣. الموسوعة الشعرية برنامج مضغوط (Cd) الإصدار الأول في أبو ظبي .

١١٤. الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي تحقيق الشيخ عبد الله دراز ط دار المعرفة بيروت ١٤١٥هـ .

١١٥. نظرية الأدب لرينيه و يليك ، و أوستن وارين ترجمة محيي الدين صبح ط المؤسسات للدراسات و النشر بيروت ١٩٨٧ م .

١١٦. نظرية المعنى في النقد العربي د / مصطفى ناصف ط دار القلم بيروت ١٩٦٥م .

١١٧. نظم الدرر في تناسب الآيات و السور لبرهان الدين البقاعي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ .

١١٨. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي ، تحقيق بكري شيخ أمين ط ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٥م .

١١٩. النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق د / محمد زغلول سلام ، و د / محمد خلف الله ط دار المعارف ١٩٨٦ م .

١٢٠. النهاية في غريب الحديث و الأثر لابن الأثير تحقيق د / محمود الطناحي ط بيروت دون تاريخ .

١٢١. الناسخ و المنسوخ لأبي جعفر النحاس ط مصر سنة ١٣٢٣هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع

****